بلاغة الأساليب الإنشائية

في تفسير القرآن العظيم

للحافظ بن كثير

ولكتور

محمد محمود يوسف البهلول

مدرس بقسم البلاغة بكلية اللغة العربية

بإيتاى البارود — جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة البحث

أحمدك ربى ملء السماوات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد وأصلى وأسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

وبعـــــد ..

فمن أجل نعم الله على العباد إنزاله القرآن على قلب رسوله ﷺ ليكون لهم فى الأولى هداية ونوراً ، وفى الآخرة ذخراً وحبــوراً ، أنزلــه بلســان عربى مبين ، وحفظه من أن ينال بتحريف مشين ، أو أن يكــون غرضــاً لافتراءات المفترين ، ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ .

ومن مظاهر حفظه : توفيق الله بعض عباده الذين انشرحت صدورهم وزكت نفوسهم ، وطهرت قلوبهم ، وصفت عقولهم ، إلى أن يولوا وجوههم، شطر القرآن الكريم ، ليكشفوا عن جلاله وجماله ، ويبحثــوا فــى أســراره وآثاره ، وباهر أنواره ، هدفهم هو الكشف عن حقائقه ومقاصده ، وإظهــار فرائضه ، لتكون تشريعاته للناس معروفة ، وأحكامه ظاهرة مكشوفة ، وقبل أن يخوض هؤلاء الأعلام هذا البحر الرجراج ، تسلحوا بشــتى المعــارف والثقافات ، وخاصة علوم العربية التى نزل القرآن بلســانها ، وطبعــى أن تتفاوت ثقافتهم ، وتتنوع مشاربهم ، وتختلف أذواقهم ، لكن يجمعهم إخلاص النية ، وانعقاد الطوية ، على خدمة كتابه سبحانه ، ورد ما كان يصوب إليه من مكائد الكائدين ، وطعون الطاعنين .

فظهرت تفاسير عديدة تحمل صبغات أصحابها ، وتكشف عن ثقافات مؤلفيها ، فمنها ما اهتم بالتفسير بالمأثور كتفسير الطبرى ، ومنها ما غلــب

عليها الجانب البلاغى ، والمظهر البيانى كتفسير الزمخشرى ، ومنهـــا مـــا غلبت عليها النزعة الكلامية وبرز فيها الجانب العقلى كتفســـير الـــرازى ، ومنها ما اتجه نحو الكشف عن آيات الأحكام كتفسير القرطبى ... إلى آخـــر تلك التفاسير التى تعددت وجهاتها ، تنوعت مناحيها ، وكان من بـــين هـــذه التفاسير تفسير ذاع على كل لسان ، واشتهر فى كل مكان ، عرفه النـــاس ، العامى منهم والخاص ، اعتمده القارئ فى مطالعاته ، والداعية فى خطاباته ، فكان بحق زاداً للخطيب ، وبغية للعاقل الأريب ، لوضوح منهجه ، وجمـــال غرضه ، وجلاء قصده ، وسهولة أسلوبه ، نقى تفسيره من شوائب الدخيل ، ولوثة العليل ، فجاء خاليا من الإسرائيليات فأغنى عن المطولات ، وابتعـــد عن المسائل الجدالية ، والتفريعات المنطقية ، ولم يكن فى تفسيره صـــاحب نحلة يدعو إليها ويتعصب لها ، ذلكم هو تفسير محدث الفقهاء ، وفقيه العلماء " الحافظ بن كثير " الذى التزم الحيطة فى تفسيره ، ووضع أسســـاً إلتزمهـــا وسار عليها ، فجاء كتابه للقرآن تفسيراً ، ولبيان أحكامه ومعانيه توضـــيحاً وتنويراً، هذا الكتاب المسمى " تفسير القرآن العظيم " هذا التفسير الذى حفظنا اسمه منذ كنا أحداثاً ، وكنا وقتها لا نحفظ من أسماء التفاسير إلا اسمه ، ولا نعرف منها إلا رسمه ، فكان يقتنيه الكبير والصغير ، فلما اســـتوينا علـــى سوقنا ، ونضجت منا عقولنا ، وسرنا فى طريق البحث والـــدرس ، وقعـــت عيوننا على تفاسير كثيرة ، لم نكن نسمع بها من قبل ، وقد اختلفت طعومها وحلا مذاقها ، لكن حل تفسير ابن كثير من نفوسنا محل الصديق المستشار ، فقد عشنا معه صغاراً ، وطالعناه كباراً ، فكنت بين الفينة والفينة أرجع إليـــه استشيره فى بيان كلمة أسأل عنها ، أو تفسير آية استفتى فيها ، فكان بحـــق صاحبا ودودا تسهل مطالعته ، فيفضى إليك بمكنونـــه ، فتأخـــذ حاجتـــك ، وتقتضى لبانتك ، لكنى كنت أقرأ فيه قراءة العجول الذى إن ظفر بمطلوبه ،

وحظى بمرغوبه قام عنه لا يلوى على شيء ، ولعل وقتها كان من أسباب عدم لزومى قراءته ، وعدم صبرى على مطالعته ، أنه كان بعيداً عن دائرة تخصصى البلاغى الذى بزت فيه تفاسير كثيرة ككشاف الزمخشرى ، ومفاتيح الرازى ، وجامع القرطبى ، وأسرار البيضاوى ، وبحر أبى حيان ، وإرشاد أبى السعود ، وروح الآلوسى ، ونظم البقاعى ، ودرر السمين ، وحاشية الخفاجى وشيخ زاده ، وتحرير ابن عاشور ... إلى آخر تلك التفاسير التى عبقت بأريج البلاغة ، فكان اهتمامى بتلك التفاسير بدافع من تخصصى .

وقد عشت مع هذه التفاسير أكثر من ثلاث سنوات فى موضوع " الدكتوراه (١) فارتفقتها فى تلك الرحلة المباركة ، ولم يكن لتفسير ابن كثير من هذا الارتفاق كبير نصيب ، لعدم ظهور إشاراته البلاغية ، واختفاء ملاحظاته البيانية ، لكن شاء الله أن أعود إلى التفسير بعد حصولى على درجة الدكتوراه ، فنويت العكوف على قراءاته ، وقوى فى تلك الرغبة ما كان يسند إلىَّ من المواعظ الدينية ، والخطب المنبرية ، التى لم يسعفنى فيها إلا تفسير ابن كثير ، فشرعت فى مطالعته مترسلاً ، فصادفنى أمر لم أعهده فيه من قبل ، وهو تلك الملامح الذوقية ، والإشارات البلاغية التى يجود بها ابن كثير بين الحين والآخر ، لكنها كانت إشارات خاطفة ، وومضاف سريعة تبدو حينا وتختفى أحياناً ، لكنها إشارات تدل على ذوق سام ، وفطنة عالية بالمقامات ، ودراية شاملة بالسياقات ، فقلت فى نفسى إن ابن كثير ليس له صدى فى المجال البلاغى ، لأن تفسيره قام على منهج التفسير بالمأثور الذى

---

(١) الطير والحيوان فى النظم القرآنى ، دراسة بلاغية وهو مخطوط بكلية اللغة العربية بإيتاى البارود .

انتهج فيه نهج أستاذه الطبرى (١) فاختمرت فى نفسى فكرة البحث فى هـذا الجانب المستور ، والكشف عن هذا الـذوق البلاغـى المقبـور ، وأخـذت تراودنى الفكرة ، فأقدم عليها مرة ، وأحجم أخرى ، وأحدث نفسى ماذا يكون لابن كثير فى هذا الجانب البيانى ؟ ، وهل إشـارته – وإن تعـددت – إلا مجرد ترداد لإشارات السابقين ؟ وأعود متسائلاً ماذا يضير الكشف عن هذه الملامح الذوقية ؟ أليس ذكره لها ، واهتمامه بها ، دليلاً على تذوقـه لهـا ، وتأثره بها ، واستشفافه لمضمونها ، وإدراك لأثرها ، وتفطن لأسـرارها ، وتحقق لدورها فى إبراز المعنى وكشف المغزى ؟ فلا حرج إذن فى الكشف عن هذا الجانب ، فاعتمدت على الله سـبحانه وتعـالى ، وصـبرت علـى مطالعته، ويعلم الله أننى عشت فى قراءة هذا التفسير الضخم وجمع إشاراته قرابة سنتين ، فسرت فى هذا العمل بتؤدة واطمئنان ، لأن تلـك الإشـارات البلاغية إنما تتراءى من بعيد ، ولا تظهر من قريب ، فهى فرائد تائهة فـى بحر خضم ، تحتاج إلى يقظة وحذر ، وهدوء وترسل ، حتى لا يفلت منهـا شيء ، فقد تأتى الإشارة فى كلمتين أو ثلاثة ، وقد لا يعبر عنها صراحة بل تفهم من أسلوبه ، وتلمح من تركيبه .

وحقيقة كانت تتخلل تلك الفترة الطويلة التى عشتها فى رحاب القراءة والجمع بحوث أخرى كانت تفرض نفسها ، فضلاً عـن شـواغل الحـدثان وعوائق الزمان ، فوقفت – بعد الانتهاء من مطالعته وجمع إشاراته – علـى كثرة كاثرة وحشد هائل من تلك الملامح الذوقية ، التى يمت جلها إلى علـم المعانى من تلك المسائل التى تتعلق بالتركيب ، وخصائص التعبير ، وقليـل منها ما يتعلق بالبيان والبديع ، فرأيت أن أقتصر فى دراسـتى هـذه علـى

---

(١) وهو تفسير قائم على تفسير القرآن بالقرآن ، وبالنسبة ، وأقوال الصحابة والتابعين .

موضوع واحد من موضوعات علم المعانى وهو الأساليب الإنشائية أملاً أن تتلو هذه الدراسة دراسات آخرى تتناول بقية قضايا علم المعـــانى والبيـــان والبديع وهى دراسات لا تكلفنى عنتا لوجود مادتها ووقوفى على آياتها فـــى هذا التفسير الضخم .

تلك كانت ظروف وملابسات اختيار هذا الموضوع الذى جاء تحـــت عنوان : " بلاغة الأساليب الإنشائية فى تفسير القرآن العظيم للحافظ بن كثير"

والأساليب الإنشائية التى اهتم بها ابن كثير هى الأساليب الإنشـــائية الطلبية ، فقد نالت نصيباً كبيراً من اهتمامه ، وقد تعددت إشـــاراته حولهـــا وتنوعت وقفاته عندها ، فبين مدلولاتها وإيحاءاتها بما يتفق مع سياق الآية ، وكان ابن كثير – بحق – ذا فطنة ثاقبة ، وذكاء لماح ، وذوق بلاغى أصيل، فى وقفته مع هذه الأساليب ، فلم يخرج من بيان مدلولاتها عن سياقها ، ولم يعتسف القول اعتسافاً فى معانيها ، وإنما صدر عن دراية عالية بالمقامات ، وفهم شامل للسياقات ، وتتبع يقظ لإشارات المفسرين السابقين ، واقتصارى على الأساليب الإنشائية الطلبية ، لأنها هى التى نالت اهتمامه ، وظهرت فى تفسيره بصورة واسعة ، وقد يكون سبب هذا الاهتمام هو احتواءهـــا علـــى معانى تتضح بها الفكرة ، وتظهر منها العبرة ، والإنشاء الطلبى – كما ذكر البلاغيون – له مزيد اهتمام لاختصاصه بمزيد أبحاث (١) ، وفيه من المزايا واللطائف التى لا توجد فى الإنشاء غير الطلبى (٢) .

والأساليب الإنشائية المصطلح عليها عند البلاغيين لم تأخـــذ قســـطاً واحداً من اهتمامات ابن كثير ، فهناك أساليب لم تأخذ مساحة فـــى تفســـيره

---

(١) المطول على التلخيص لسعد الدين التفتازانى ٢٢٤ مطبعة أحمد كامل ١٣٣٠هـــ .

(٢) علوم البلاغة للمراغى ٦٠ دار القلم – ببيروت – لبنان – الطبعة الأولى ١٩٨٠م .

وليس له إشارات بلاغية حولها كأسلوب التمنى والنداء كذلك أسلوب النهى ، فقد ندرت وقفاته عنده ، وظهرت له حوله بعض الإشارات .

أما أسلوباً الأمر والاستفهام فقد شاع حديثه عنهما فى تفسيره شيوعاً ملحوظا ، الأمر الذى جعلنى أقتصر فى دراستى هذه على الأمر والاستفهام فجاءت فى مبحثين ومقدمه وتمهيد وخاتمة :

فالمقدمة كشفت فيها عن موضوع البحث ، ودوافع اختياره والملابسات التى اكتنفته ، والمنهج الذى اتبعته فى هذا البحث .

أما التمهيد فألقيت الضوء فيها على ثلاث نقاط :

الأولى : ترجمة موجزة لابن كثير تكشف عن اسمه ونسبه ومولوه ونشأته وحياته العلمية ، وشيوخه وتلامذته ومصنفاته .

الثانى : منهجه فى التفسير .

الثالثة : رأيه فى الإعجاز القرآنى وموقفه من القائلين بالصرفة .

ثم يأتى المبحث الأول وتناولت فيه أسلوب الأمر وأسراره البلاغية أما المبحث الثانى فعرضت فيه أسلوب الاستفهام وأسراره البلاغية ، ثم تأتى الخاتمة وفهارس البحث .

هناك شيء هام تجدر الإشارة إليه وهو أن ابن كثير بحق كان فطناً للمعانى الثوانى لهذين الأسلوبين ، وهى معان أظهرها السياق واقتضاها المقام .

أما منهجى فى هذا البحث فكان على النحو التالى :

سبق أن أشرت إلى أننى وقفت على حشد هائل من إشارات ابن كثير حول هاذين الأسلوبين ، فحاولت أن أجمع الإشارات المتشابهة الواردة فى

الغرض الواحد ، وهى إشارات مبثوثة فى بطون تفسيره ، فجمعت اللفق إلى لفقه ، وضممت النظير إلى نظيره ، وعالجته غرضه .

وهناك جهد آخر ظهر فى معالجتى أسلوب الاستفهام وخاصة غرض الإنكار الذى راعى طوائف شتى من البشر ، فهناك إنكار – قليل – على الفئة المسلمة فى بعض أمورها ، وهناك إنكار متعدد على الفئات الضالة الكافرة يهودية كانت أو نصرانية ، مشركة كانت أو مجوسية ، وهناك إنكار الأنبياء على أقوامهم ، وإنكار الأقوام على أنبيائهم ، كما أن هناك إنكاراً فى الدار الآخرة بين أهل الجنة وأهل النار ... فحاولت جمع أساليب الإنكارا الموجهة إلى تلك الفئات المتباينة ، وعالجت استفهام كل فئة على حده ، مستأنسا – فى كل ما سبق – بنصوص الحافظ بن كثير ، وإن كان هذا التصنيف لم يصرح به ، وإنما هديت إليه من خلال وقفاته ، وإن أعوذنى الأمر كنت استقرئ السياق ، واستشير المقام ، وكان غرضى من هذا التصنيف هو الوقوف على تفاوت أساليب الإنكار قوة وضعفاً ، ارتفاعاً وانخفاضاً ، مخاشنة ومهادنة ، قلة وكثرة ، وهذا أمر هل وزنه فى الجانب البلاغى .

وبعـــــد

فهذا بحث قد بذلت فيه جهداً ، ولم أدخر فيه وسعاً ، وقد قمت بتحليل مسائلة وتحرير مباحثه فى بلد الغربة (١) التى يكون الإنسان فيها مشتت النفس موزع التفكير ، فضلاً عما كنت أعانيه من ندرة المصادر وقلة المراجع (٢) .

---

(١) وقت أن كنت معارا إلى جامعة قار يونس ببنغازى .

(٢) كنت أسافر من محل عملى ١٦٥ كيلو متر لأجلس بضع ساعات فى المكتاب العامة لمطالعة التفاسير .

وقد كان الحصول عليها يكلفنى عرق القربة ، زيادة على آلام الغربة فأسأل الله سبحانه وتعالى حسن المثوبة ، وصدقاً فى النية ، وخلوصاً للطوية، وإخلاصاً فى العمل ، وتجنباً لمواطن الذلل . فهو حسبى ونعم الوكيل .

﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ .

ليبيا

جامعة قار يونس – بنغازى

إجدابيا – كلية الآداب والعلوم

التمهيد

(أ) ترجمة موجزة عن ابن كثير (*)

- نسبه :

هو عماد الدين بن كثير الدمشقى الفقيه الشافعى .

- مولده ونشأته :

ولد ابن كثير سنة سبعمائة من الهجرة ، وقيل إنه ولد سنة واحد وسبعمائة .

ولد فى قرية من أعمال مدينة بصرى ، ثم انتقل إلى دمشق وله سبع سنين مع أخيه بعد موت أبيه ، وقد مات أبوه وهو فى الرابعة من عمره ، فرباه أخوه من بعده .

- حياته العلمية :

نشأ ابن كثير محباً للعلم ، فتفقه على يد الشيخ برهان الدين الفرارى وغيره ، وسمع من القاسم بن عساكر ، وبرع فى الفقه والتفسير والنحو ، وأمعن النظر فى الرجال والعلل حتى قال فيه ابن حبيب .

(*) روجع فى هذه الترجمة الكتب التالية :

١- شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لأبى الفلاح بن العماد الحنبلى ٦/٢٣١ مكتبة القدس .

٢- البدر الطالع من بعد القرن السابع لمحمد بن على الشوكانى ١/١٣٥ - الطبعة الأولى ١٣٤٨هـ - مطبعة السعادة .

٣- المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى لابن تغرى جمال الدين أبو المحاسن ٢/٤١٤ ، ٤١٥ - د/ محمد محمد أمين ، د/ سعيد عاشور - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤م .

" إمام روى التسبيح والتهليل ، وزعيم أرباب التأويل ، سمع وجمع وصنف وأطرب الأسماع بالفتوى وشنف ، وحدث وأفاد ، وطارت أوراق فتاويه إلى البلاد ، واشتهر بالضبط والتحرير ، وانتهت إليه رياسة العلم فى التاريخ الحديث والتفسير ، ومن شعره رحمه الله :

تمر بنا الأيام تترى وإنما ∴ نساق إلى الأجال والعين تنظر

فلا عائد ذاك الشباب الذى مضى ∴ ولا زائل هذا المشيب المكدر

وقد تزوج من بنت شيخه الإمام المزى وكانت امرأة صالحة .

- شيوخه :

أخذ عن عيسى المطعم ، والقاسم بن عساكر ، وابن الشيرازى ، وإسحاق الآمدى . كما أخذ عن الإمام ابن تيمية رحمه الله ، وكان ملازما له، ومحباً له حباً جماً .

- تلاميذه :

جاء فى شذارت الذهب أن تلامذته كثيرون ، وذكر منهم ابن حجى ، وكان عالما .

- مصنفاته :

له كتب متعددة منها : البداية والنهاية ، وتفسير القرآن العظيم الذى قامت حوله هذه الرسالة ، وكتاب فى جمع المسانيد العشرة ، واختصر تهذيب الكمال وأضاف إليه ، وله التكميل فى معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل ، وله كتب على البخارى ولم يكمله .

- وفاته :

توفى رحمه الله فى شعبان سنة أربع وسبعين وسبعمائة ، ودفن مع شيخه ابن تيمية بوصية منه ، ورثاه بعض طلبته بهذه الآبيات :

لفقدك طلاب العلوم تأسفوا ∴ وجادوا بدمع لا يبيد غزير

ولو مزجوا ماء المدامع بالدما ∴ لكان قليلاً فيك يا ابن كثير

(ب) منهجه فى التفسير :-

قد أفصح الحافظ بن كثير فى مقدمة تفسيره عن منهجه الذى سار عليه وهو فى الحقيقة منهج رائد اثنى عليه العلماء ، جاء فى تفسير المنار " أن تفسير ابن كثير أشهر كتب التفاسير فى العناية بما روى عن مفسرى السلف ، وبيان معانى الآيات وأحكامها ، وتحامى ما أطال به كثيرون من مباحث الإعراب ونكت فنون البلاغة ، أو الاستطراد لعلوم أخرى لا يحتاج إليها فى فهم القرآن ، ولا التفقه فيه ، ولا الاتعاظ به ، ومن مزاياه العناية بما يسمونه تفسير القرآن بالقرآن ، فهو أكثر ما عرفناه من كتب التفسير سرداً للآيات المتناسبة فى المعنى ، ويلى ذلك الأحاديث المرفوعة التى تتعلق بالآية، وبيان ما يحتج به منها ويليها آثار الصحابة وأقوال التابعين ، ومن بعدهم علماء السلف (١) .

وتفسير ابن كثير يأتى فى المرتبة الثانية بعد ابن جرير الطبرى ، فهو يفسر كلام الله بالأحاديث والآثار مسنده إلى أصحابها ، ويمتاز ابن كثير بأنه ينبه فى كثير من الأحيان إلى ما فى التفسير بالمأثور من منكرات

---

(١) راجع تفسير المنار .

الإسرائيليات ، كما يذكر أقوال العلماء فى الأحكام الفقهية ، ويناقش مذهبهم وأدلتهم أحياناً (١) .

أما منهجه فى تفسيره فقد وضع لنفسه أسسا التزمها وسار عليها بأمانة كاملة ، فجاء تفسيره وفق ما وضعه من منهج ، وسأحاول أن أعرض هذه الأسس فى إيجاز ، واكتفى بنموذج واحد يوضح المراد ، ولولا خوفى من ابتعادى عن منهج البحث لسردت عديدا من النماذج التى أترع بها تفسيره.

أولاً : تفسير القرآن بالقرآن :-

يكشف ابن كثير عن هذا التفسير بقوله : " فإن قال قائل : فما أحسن طرق التفسير ؟ فالجواب إن أصح الطرق أن يفسر القرآن بالقرآن ، فما أجمل فى مكان فإنه قد بسط فى موضع آخر (٢) ، ويسرد عديدا من الآيات التى توضح هذا المعنى كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ (٣) . يذكر أن معناها لا نسألك عن كفر من كفر بك (٤) ، ويسرد عديدا من الآيات التى توضح هذا المعنى كقوله :﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ (٥) ، وكقوله :﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ

---

(١) مباحث فى علوم القرآن منيع القطان ٣٦٦ ، ٣٦٧ .

(٢) تفسير ابن كثير ٣٥/١ .

(٣) سورة البقرة : آية ١١٩ .

(٤) تفسير ابن كثير ٣٥٢/١ .

(٥) سورة الرعد : آية ٤٠ .

عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ (١) ، وكقوله :﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ (٢) .

ثانياً : تفسير القرآن بالسنة :-

معلوم أن السنة هى المصدر الثانى فى التشريع ، وهى تبيان للناس ، وتوضيح لما فى القرآن . قال تعالى :﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (٣) . قال الحافظ مبينا هذا النوع من التفسير :

" فإن أعياك ذلك – أى أعجزك تفسير القرآن بالقرآن – فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن ، وموضحة له ، بل قال الإمام الشافعى – رحمه الله – كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن ، قال تعالى :﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾ (٤) ، ولهذا قال رسول الله ﷺ : ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه أى السنة (٥) .

فمن ثم نرى الحافظ يقف عند قوله تعالى :﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ﴾ (٦) ، فيذكر أن الأنداد هما الأمثال والنظراء ، وهم الذين يعبدونهم من دون الله ، ويسوق حديثاً لتوضيح هذا ،

---

(١) سورة الغاشية : آيتى ٢١ ، ٢٢ .

(٢) سورة ق : آية ٤٥ .

(٣) تفسير ابن كثير ٣٥٢/١ .

(٤) سورة النساء : آية ١٠٥ .

(٥) تفسير ابن كثير ٣٥/١ .

(٦) سورة البقرة : آية ١٦٥ .

وهو قوله ﷺ فيما أخرجه الصحيحان عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال : قلت يا رسول الله : أى الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله ندا وهو خلقك (١) .

ثالثاً : تفسير القرآن بأقوال الصحابة :-

يقول ابن كثير : " إذا لم نجد التفسير فى القرآن ولا فى السنة رجعنا فى ذلك إلى أقوال الصحابة ، فإنهم أدرى بذلك ، لما شاهدوا من القرائن والأقوال التى اختصوا بها ، ولما لهم من الفهم التام ، والعلم الصحيح لاسيما علماؤهم وكبراؤهم كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين ، والأئمة المهديين وعبد الله بن مسعود ﷺ (٢) .

فيعرض لقوله تعالى :﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً ﴾ (٣) ، فينقل ما عزى إلى ابن عباس " أى لا يقضون منه وطراً يأتونه ، ثم يرجعون إلى أهلهم ثم يعودون إليه (٤) .

رابعاً : تفسير القرآن بأقوال التابعين :-

يقول رحمه الله – إذا لم تجد التفسير فى القرآن ولا فى السنة ولا وجدته عن الصحابة ، فقد رجع كثير من الأئمة فى ذلك إلى أقوال التابعين كمجاهد بن جبير (٥) ، يظهر ذلك فى وقفته عند قوله تعالى ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ (٦) ، فنراه ينقل عن السدى وعكرمة ، وسعيد بن جبير أن المرض

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٣٢/١ .
(٢) تفسير ابن كثير ٣٥/١ ، ٣٦ .
(٣) سورة البقرة : آية ١٢٥ .
(٤) تفسير ابن كثير ٣٦٤/١ .
(٥) السابق ٣٨/١ .
(٦) سورة البقرة : آية ١٠ .

بمعنى الشك ، وينقل عن قتادة وطاووس أنه بمعنى الرياء ، وينقل عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنه مرض فى الدين وليس مرضاً فى الأجساد وهم المنافقون ، ونجده يحسن قول عبد الرحمن هذا (١) .

خامساً : محاولته تنقية تفسيره من شوائب الإسرائيليات التى تسربت إليه ورشحت عليه ، وكان موقفه تجاه هذه الظاهرة موقفا واضحاً ، فيقول: إن الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتقاد ، فإنها على ثلاثة أقسام : أحدها : ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق ، فذاك صحيح ، والثانى : ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه ، والثالث : ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ، ولا من هذا القبيل ، فلا نؤمن به ولا نكذبه ، وتجوز حكايته ، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر دينى (٢) ، ويسوق ابن كثير شاهداً لهذا النوع ، وهو ما ورد فى أسماء أصحاب الكهف ، ولون كلبهم ، وعدتهم ، وعصا موسى من أى الشجر كانت ، وأسماء الطيور التى أحياها الله لإبراهيم ، وتعيين البعض الذى ضرب به القتيل من البقرة، ونوع الشجرة التى كلم الله منها موسى إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى فى القرآن الكريم مما لا فائدة فى تعيينه تعود على المكلفين فى دنياهم ولا دينهم (٣) . وذكر رحمه الله أن نقل الخلاف عنهم جائز كما قال تعالى :﴿ سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل

---

(١) تفسير ابن كثير ١/١٣٤ .
(٢) تفسير ابن كثير ١/٣٧ .
(٣) نفسه .

رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلا قَلِيلٌ ﴾ (١) . فقد اشتملت هذه الآيـــة على الأدب فى هذا المقام ، وتعليم ما ينبغى فى مثل هذا ، فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال ضعَّف القولين الأولين ، وسكت عن الثالـــث فدل على صحته ، إذ لو كان باطلا لرده كما ردهما ... (٢) .

وتراه يطبق هذا المقياس عند تفسير قولـــه تعـــالى :﴿ قَ وَالْقُـــرْآنِ الْمَجِيدِ﴾(٣) .

قال : قد روى عن بعض السلف أنهم قالوا : ق جبل محيط بجميـــع الأرض يقال له : جبل " ق " وكان هذا والله أعلم من خرافات بنى إســـرائيل التى أخذها بعض الناس ، لما رأى من جواز الرواية عنهم مما لا يصدق ولا يكذب (٤) ، ثم يقول : وعندى أن هذا وأشباهه من اختلاف بعض زنـــادقهم يلبسون به على الناس أمرد دينهم ، كما افترى فى هذه الأمة مع جلاله قـــدر علمائها وحفاظها وأئمتها أحاديث على النبى ﷺ ، فكيف بأمة بنى إســـرائيل مع طول المدى ، وقلة الحفاظ والنقاد منهم ، وشربهم الخمـــور ، وتحريـــف علمائهم الكلم عن مواضعه (٥) .

---

(١) سورة الكهف : آية ٢٢.

(٢) تفسير ابن كثير ٣٨/١ .

(٣) سورة ق : آية ١ .

(٤) تفسير ابن كثير ٢٢١/٤ .

(٥) نفسه .

موقفه من التفسير بالرأى :-

يذكر رحمه الله – أن تفسير القرآن بمجرد الرأى حرام (١) ، ويستدل بحديث ابن عباس عن النبى ﷺ أنه قال : من قال فى القرآن برأيه أو بما لا يعلم فليتبوأ مقعده من النار ، وأورد أحاديث أخرى فى هذا الباب (٢) ، ثم ذكر تحرج السلف من الكلام فى التفسير مما لا علم لهم به (٣) ، لكنه ذكر أن القول بالرأى إذا كان معتمداً على أساس من اللغة والشرع فلا حرج عليه، ولهذا روى عن هؤلاء وغيرهم أقوال فى التفسير ، ولا منافاة ، لأنهم تكلموا فيما علموه ، وسكتوا عما جهلوه (٤) .

ولعل بعد هذه الإطلالة يكون قد اتضح منهج ابن كثير فى تفسيره ، ومدى التزامه بالشروط التى أخذها على نفسه .

(ج) رأى ابن كثير فى الإعجاز القرآنى وموقفه من القول بالصرفة :-

قضية الإعجاز القرآنى قضية قديمة ، تحدث فيها العلماء ، وتنوعت فيها الآراء ، وتعددت فيها الوجهات ، فرأى يقول بالصرفة ، وهو مردود ، ومنهم من يقول بحديث القرآن عن الأمور الغيبية ، والأخبار المستقبلية ، ومنهم من يقول بكشفه عن أحوال الأمم الغابرة (٥) .

---

(١) السابق ١/٣٩ .
(٢) السابق ١/٤٠ .
(٣) السابق ١/٤٢ .
(٤) نفسه .
(٥) راجع الإتفاق فى علوم القرآن للسيوطى ٤٦٤ / ٤٦٥ – دار مصر للطباعة .

وهناك وجهات حديثة نادت بأن الإعجاز العلمى وجه مـــن وجـــوه الإعجاز (١) ، ومنهم من يقول بالإعجاز النفسى (٢) ، لكـــن الـــذى عليـــه المحققون ، وارتضاه المدققون ، هو أن إعجاز القرآن منظور فيه من جهـــة البلاغة والنظم ، ذكر الخطابى أن الرأى هو ما عليه الأكثرون من العلمـــاء وأهل النظر (٣) ، وقد رفض الإمام عبد القاهر وغيره القول بالصرفة التـــى نادت بها المعتزلة ، وقرر أن القرآن معجز فى نفسه ، وفى نظمه ، وتأليفه على وصف لا يهتدى الخلق إلى الإتيان بكلام هو فى نظمه وتأليفه على ذلك الوصف (٤) .

والذى يعنينا هنا هو موقف الحافظ بن كثير من تلك القضية .

الذى يطالع أول تفسيره يجد أن موقفه من تلك القضية كان واضـــحاً أظهر عنه بصدد تفسيره قوله تعالى :﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَـــى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُـــواْ شُـــهَدَاءكُم مِّـــن دُونِ اللّـــهِ إِنْ كُنْـــتُمْ صَادِقِينَ﴾(٥) ، وقرر – تبعا لجمهور العلماء – أن الإعجاز يتعلق بالناحيـــة البيانية والنظم البليغ ، وذكر أن حديث القرآن عن الأمم الماضية جـــاء فـــى

---

(١) راجع الإنجاز العلمى محمد كامل عبد الصمد .

(٢) راجع إعجاز القرآن عبد الكريم الخطيب من ٣٨ إلى ٤٣ دار الفكر العربى الطبعـــة الأولى ١٣٨٣هـــ - ١٩٦٤م .

(٣) بيان إعجاز القرآن للخطابى فى ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ٢٠ ، ٢١ ت/ محمد خلف الله ، محمد زغلول سلام ، دار المعارف .

(٤) الرسالة الشافعية فى الإعجاز فى كتاب دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجـــانى ٦٢٥ ت/ محمود شاكر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٥) سورة البقرة : آية ٢٣ .

أسلوب بلغ من الحلاوة مبلغا ، وأترك المجال لابن كثير ليفصح عن موقفه فيقول :

" فقد أخبر عن مغيبات أمم ماضية كانت ووقعت طبق ما أخبر سواء بسواء ، وأمر بكل خير ، ونهى عن كل شر ، كما قال تعالى :﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً﴾ (١) ، أى صدقا فى الأخبار ، وعدلا فى الأحكام ، فكله حق وصدق وعدل وهدى ، ليس فيه مجازفة ولا كذب ولا افتراء ، كما يوجد فى أشعار العرب وغيرهم من الأكاذيب والمجازفات التى لا يحسن شعرهم إلا بها ، كما قيل : إن أعذب الشعر أكذبه ، وتجد القصيدة الطويلة المديدة قد استعمل غالبها فى وصف النساء أو الخيل أو الخمر أو فى مدح شخص معين ، أو فرس أو ناقة أو حرب .. من المشاهدات المتعينة التى لا تفيد شيئاً إلا قدرة المتكلم المعين على الشيء الخفى أو الدقيق أو إبرازه إلى الشيء الواضح ، ثم تجد له فيه بيتا أو بيتين أو أكثر هى بيوت القصيد ، وسائرها هذر لا طائل تحته ، وأما القرآن فجميعه فصيح فى غاية نهايات البلاغة عند من يعرف ذلك تفصيلاً وإجمالاً ، ومن كلام العرب وتصاريف التعبير ، فإنه وإن تأملت أخباره وجدتها فى غاية الحلاوة ، سواء كانت مبسوطة أو وجيزة ، وسواء تكررت أم لا ، وكلما تكرر حلا وعلا ، ولا يخلق من كثرة الرد ، ولا يمل منه العلماء وإن أخذ فى الوعيد والتهديد ، جاء منه ما تقشعر منه الجبال الصمم الراسيات ، فما ظنك بالقلوب الفاهمات، وإن وعد أتى بما يفتح القلوب والآذان ، ويشوق إلى دار السلام ، ومجاورة عرش الرحمن ، كما قال فى الترغيب :﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ

---

(١) سورة الأنعام : آية ١١٥ .

أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١) . ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(٢) . وقال فى الترغيب :﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لاَ تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلاً﴾(٣) . ﴿ أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَستَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ . وقال فى الزجر :﴿ فَكُلا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾(٤) . وقال فى الوعظ :﴿ أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾(٥) . إلى غير ذلك من أنواع الفصاحة والبلاغة والحلاوة ، وإن جاءت الآيات فى الأحكام والأوامر والنواهى اشتملت على الأمر بكل معروف حسن نافع طيب محبوب ، والنهى عن كل قبيح رذيل دنئ ، وإن جاءت الآيات فى وصف المعاد ، وما فيه من الأهوال ، وفى وصف الجنة والنار وما أعد الله فيها لأوليائه وأعدائه من النعيم والجحيم ، والملاذ والعذاب الأليم ، بشرت به وحذرت وأنذرت ، ودعت إلى فعل الخيرات واجتناب المنكرات ، وزهدت فى الدنيا ورغبت فى الآخرة ، وثبتت على الطريقة المثلى ، وهدت إلى صراط الله المستقيم وشرعه القيوم ، ونعت عن القلوب رجس الشيطان الرجيم (٦) .

---

(١) سورة السجدة : آية ١٧ .

(٢) سورة الزخرف : آية ٧١ .

(٣) سورة الإسراء : آية ٦٨ .

(٤) سورة العنكبوت : آية ٤٠ .

(٥) سورة الشعراء : آيات من ٢٠٥ إلى ٢٠٧ .

(٦) تفسير ابن كثير ١/١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ .

فيتضح من خلال ما سبق أن ابن كثير نظر إلى جهة الإعجاز من الجهة التى نظر إليها الجمهور ، وهو الإعجاز المتمثل فى النظم العالى والترتيب البديع ، والتركيب البليغ . . إلى جانب صدقه فيما أخبر عنه عن الأمم السابقة .

موقفه من القول بالصرفة :-

تراه يوجز رأى القائلين بالصرفة ، ويبين عدم ارتضائه له فيقول : قرر بعض المتكلمين فى إعجاز القرآن فقال إن كان هذا القرآن معجزاً فى نفسه لا يستطيع البشر الإيتان بمثله ، ولا فى قواهم معارضته ، فقد حصل المدعى وهو المطلوب ، وإن كان فى إمكانهم معارضته بمثله لم يفعلوا ذلك مع شدة عداوتهم له ، كان ذلك دليلا على أنه من عند الله ، ليصرفه إياهم عن معاضته ، مع قدرتهم على ذلك ، وهذه الطريقة وإن لم تكن مرضية ، لأن القرآن فى نفسه معجز لا يستطيع البشر معارضته ، إلا أنها تصلح عن سبيل التنزل والمجادلة والمنافحة عن الحق (١) .

---

(١) السابق ١/١٥٧ .

المبحث الأول

" أسلوب الأمر "

الأمر :-

حظى أسلوب الأمر باهتمام عظيم من علماء الأصول ؛ لأنه يمثل قاعدة كبيرة ينبنى عليها أساس التشريع فى الحل والحرمة ، ومن ثم قامت دراسات مستفيضة تبحث عن كنهه ومدلولاته ومباحثه ، وهل حقيقة الأمر الوجوب أو الندب ؟ ، وهل يفيد الوجوب على الفور أو التراخى ؟ إلى آخر تلك المباحث التى يعد بعضها لبنات اعتمد عليها علماء البلاغة فى تقرير مسائله ، والكشف عن مباحثه وبلاغته ، وما يحققه من أهداف عالية وأغراض سامية .

وصيغة الأمر – كما ذكر الخطيب – موضوعة لطلب الفعل استعلاء لتبادر الذهن عن سماعها إلى ذلك ، وتوقف ما سواه على القرينة (١) ، أى أن المعنى الحقيقى للأمر هو الوجوب استعلاء عند خلو السياق من القرائن التى تصرف معناه إلى معانى أخرى ، وهذه المعانى كثيرة أوصلها السبكى إلى خمسة وعشرين معنى (٢) .

والذى يعنينا هنا هو تذوق ابن كثير لدلالات هذا الأسلوب ، وفطنته لتلك المعانى التى تفهم من مستتبعات التراكيب ، حين تغمغم بها العبارات ، وتومئ إليها السياقات ، وقد فطن الحافظ بن كثير إلى هذه المعانى ، وكان أوسع هذه المعانى عنده معنى النصح والإرشاد ، والتهديد والوعيد ، أما بقية المعانى فإشاراته إليها قليلة ، وإذا التمسنا تعليلاً لكثرة هذين المعنيين ، فنجد أن هذه الكثرة تنسجم مع هدف القرآن الذى نزل توضيحاً وتبياناً ، وإرشاداً وتوجيها ؛ ليفوز الناس فى الآخرة بالنعيم ، ويسعدوا بالخير العميم، وفيه

---

(١) الإيضاح للقزوينى ٨٤ مطبعة دار الجيل .

(٢) راجع شروح التلخيص ٣١٣/٢ إلى ٣٢٢ .

تهديدات ملتهبة ، وتوعدات صارخة بالعذاب الأليم ، لمن ينكب عن فطـــرة الإسلام وكلمة الإيمان ، فمن ثم شاع هذان المعنيان تحقيقاً لهذه الأغـــراض وقد تكون ندرة المعانى الأخرى فى تفسيره راجعة إلى أن الحافظ لـــم يكـــن وكده الوقوف على تلك المعانى ، وإنما كان التفسير بالمـــأثور هـــو شـــغله الشاغل ، فجاءت تلك الإشارات ومضات كومضات البرق تكشف عن ذوقـــه وبلاغته ، وإليك هذه المعانى :

الإرشاد والتوجيه :-

من ذلك قوله تعالى :﴿ فَاذْكُرُواْ اللّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَـــرَامِ وَاذْكُـــرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّآلِّينَ﴾(١) . يقول : تنبيه لهم على مـــا أنعم الله به عليهم من الهداية والبيان والإرشاد إلى مشاعر الحج (٢) .

ومعنى الآية – كما ذكر الزمخشرى – واذكروه ذكـــراً حســـنا كمـــا هداكم هداية حسنة ، أو اذكروه كما علمكم كيف تذكرونه لا تعدلوا عنه وإن كنتم من قبل الهدى لمن الجاهلين لا تعرفون كيف تذكرونه وتعبدونه (٣) .

ومنه قوله تعالى :﴿ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾(٤) ، ففيه ندب وإرشاد إلى غشيانهن بعـــد الاغتسال (٥) ، وقد حمل بعضهم الأمر هنا على الوجوب كابن حزم ، لكـــن ابن كثير ضعفه لعدم استناده إلى دليل (٦) .

---

(١) سورة البقرة : آية ١٩٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢٤٢/١ .

(٣) الكشاف للزمخشرى ٣٤٩/١ دار الفكر .

(٤) سورة البقرة : آية ٢٢٢ .

(٥) تفسير ابن كثير ٢٦٠/١ .

(٦) نفسه .

وقد ذهب أبو حيان إلى أن الأمر هنا يراد به الإباحة (١) ، وهذا المعنى قريب من سياق الآية إلا أننا لو راعينا الفروق الدقيقة بين هذه المصطلحات عند علماء الأصول لظهر وجاهة ما ذهب إليه ابن كثير ؛ لأن الندب " يمتاز بأن فيه توجيها إلى ما يرجى به ثواب الآخرة ، والإرشاد توجيه إلى ما فيه تحصيل منافع دنيوية (٢) ، وقد نص الشيخ الجمل على هذا الفرق حين نقل عن الكرخى قوله " والفرق بينهما أن الندب مطلوب لثواب الآخرة ، والإرشاد لمنافع الدنيا " (٣) ، وغشيان النساء لا يخرج عن هاتين المنفعتين ؛ لأنه لو أراد الإنسان به وجه الله كتحصين فرجه وإعفاف نفسه وزوجه أجر ونال ثوابا آخرويا ، ولو لم يرد به إلا ابتغاء الشهوة ونيل اللذة كانت المنفعة دنيوية واللذة حاضرة ، وعليه فلا تعارض بين هذين المعنيين ، وإن كان قول أبى حيان صادراً من قاعدة أصولية وهى " أن الأمر بعد الحظر يفيد الإباحة (٤) " .

ومنه قوله تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ...﴾(٥) . هذا إرشاد منه تعالى لعباده المؤمنين ، إذا تعاملوا بمعاملات مؤجلة أن يكتبوها ؛ ليكون أحفظ لمقدارها وميقاتها ، وأضبط للشاهد فيها (٦) وذهب الزمخشرى إلى أن الأمر هنا للندب (٧) وليس بين

---

(١) البحر المحيط لأبى حيان ١/١٧٩ .

(٢) محاضرات فى أصول الفقه د/ عبد المجيد مطلوب هامش ٢٨٥ .

(٣) حاشية الجمل على الجلالين ١/٣٨٧ دار الفكر ١٤١٥هـ- ١٩٩٤م .

(٤) الحظر فى أول الآية ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىَ يَطْهُرْنَ﴾ .

(٥) سورة البقرة : آية ٢٨٢ .

(٦) تفسير ابن كثير ١/٣٣٤ .

(٧) الكشاف ١/٤٠٢ .

الوجهين تعارض ، فالأمر قد يكون للندب والإرشاد معا ، وفى تعليل الأمر بالكتابة قد يبدو تأثر ابن كثير بالزمخشرى مع اختلاف العبارات ، فالزمخشرى يذكر " وإنما أمر بكتابة الدين لأن ذلك أوثق وآمن من النسيان ، وأبعد من الجحود (١) " فمضمون تعليلهما واحد ، إلا أن ابن كثير لم يرض أن يكون أسيراً لتركيب الزمخشرى ، فألبس تعليله ثوبا قشيبا ، وحلة زاهية كشفت عن ذوق أصيل ، ولم يصنع صنيع أبى حيان الذى نقل تعليل الزمخشرى بنصه وفصه دون إشارة إليه (٢) ، وبعد أن ذكر أبو حيان معنى الندب وعزاه إلى الجمهور ذكر وجها آخر يحمل الأمر فى الآية على الوجوب (٣) لكن ابن كثير اعترض هذا الرأى وضعفه فقال :

" والذى أمر الله بكتابته إنما هو أشياء جزئية تقع بين الناس ، فأمروا أمر إرشاد لا أمر إيجاب كما ذهب إليه بعضهم (٤) وهذا المعنى أكده الفراء قبل ابن كثير فذهب إلى أن الأمر هنا ليس بفريضة ، إنما هو أدب ورحمة من الله تبارك وتعالى (٥) " ويدلل الرازى على القول بالندب بأن جمهور المسلمين فى جميع ديار المسلمين يبيعون بالأثمان المؤجلة من غير كتابة ولا إشهاد (٦) وجاء فى حاشية الجمل " أن " فاكتبوه " أمر إرشاد ، أى تعليم

---

(١) نفسه .

(٢) البحر المحيط /٢٥٩ .

(٣) نفسه .

(٤) تفسير ابن كثير ٣٣٤/١ .

(٥) معانى القرآن للفراء ١٨٣/١ .

(٦) مفاتيح الغيب للرازى ١١٨/٧ .

ترجع فائدته إلى منافع الخلق فى دنياهم ، فلا يثاب عليه المكلف إلا أن قصد الامتثال " (١) .

ومنه فى آية المداينة نفسها ... ﴿ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴾ ... " ، والأمر هنا – كما ذكر ابن كثير – محمول عند الجمهور على الندب والإرشاد لا على الوجوب (٢) .

واستشهد بحديث ابتياع الرسول ﷺ دون إشهاد (٣) والذى يرجع إلى ما ذكره الزمخشرى حول هذه الآية يراه لم يجزم فى هذه المسألة بل ذكر وجوها للعلماء يفهم منها المعينان ، فقد نقل عن الحسن قوله " إن شاء أشهد ، وإن شاء لم يشهد " (٤) وهذا يفهم منه أن الأمر للندب والإرشاد كما ذهب الجمهور ، وذكر قول الضحاك " هى عزيمة من الله ولو على باقة بقل "(٥) والعزيمة يفهم منها الإيجاب ، لأنها – كما ذكر الراغب – عقد القلب على إمضاء الأمر (٦) " ويقال " عزمت عليك أى أقسمت (٧) وقد مال الطبرى إلى القول بالوجوب (٨) .

والأظهر من هذه الأقوال هو أن الأمر للإرشاد والتعليم ، حفظاً للأموال ، وقطعاً للنزاع ، وبعداً عن التجاحد ، وقد صار الأمر فيها موكولا

---

(١) حاشية الجمل ١/٣٨٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ١/٣٣٦ .

(٣) نفسه .

(٤) الكشاف ١/٤٠٤ .

(٥) نفسه .

(٦) المفردات فى غريب القرآن الأصفهانى ٣٣٤ دار الخلود للتراث .

(٧) أساس البلاغة للزمخشرى مادة عزم .

(٨) تفسير الطبرى ٣/٨٨ .

إلى الأمانة لقوله تعالى " فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذى أؤتمن أمانته ... وثبت أن الرسول ﷺ ابتاع فرسا ولم يشهد عليه فجُحِد فشهد له خزيمة بصدقه ، وذلك فى الحديث الذى اعتمد عليه الحافظ بن كثير ، وورد أن الرسول ﷺ اشترى من يهودى طعاما ورهنه درعه ، واشترى سراويل ولم ينقل أنه أشهد فى ذلك ، وكان الصحابة يتبايعون فى عصره فلم يأمرهم بالإشهاد ، ولا نقل عنهم فعله ، ولم ينكر عليهم النبى ﷺ ، ولو كانوا يشهدون لنقل ، ولأن المبايعة تكثر بين الناس فى أسواقهم وغيرهم فلو وجب الإشهاد فى كل ما يتبايعون أفضى إلى الحرج المحطوط عنا بقوله ما جعل عليكم فى الدين من حرج (١) .

ومن ذلك قوله تعالى :﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلّهِ ﴾(٢) والمعنى أن هؤلاء المعاندين طلبوا أن ينزل على الرسول ﷺ آية كما أعطى ثمود الناقة ، وأن يحول لهم الصفا ذهباً أو يزيح عنهم جبال مكة ويجعل مكانها بساتين وأنهاراً (٣) ..... فأرشد الله نبيه إلى الرد قال الحافظ :

" ولهذا قال تعالى إرشادا لنبيه ﷺ إلى الجواب عما سألوا فقل إنما الغيب لله ، أى الأمر كله لله وهو يعلم العواقب فى الأمور (٤) .

---

(١) راجع المغنى لابن قدامه ٣١٤/٥ ت/ جماعة من العلماء – دار الحديث – الطبعة الأولى ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م .

(٢) يونس ٢٠٠ .

(٣) تفسير ابن كثير ٤١٢/٢ .

(٤) نفسه .

ومنه قوله :﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾(١) يقول الحافظ : " هذا أمر من الله تعالى لعباده على لسان نبيه ﷺ إذا أرادوا قراءة القرآن أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم ، وهذا أمر ندب ليس بواجب (٢) وذكر الرازى نقلا عن عطاء أنها للوجوب ، وذكر قول سائر الفقهاء أنها ليس كذلك (٣) والقول : بالندب هو الأليق بالسياق ، وفى كلام الزمخشرى ما يشير إلى ، هذا يقول :

" لما ذكر العمل الصالح ووعد عليه (٤) وصل به قوله :﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ إيذانا بأن الاستعاذة من جملة الأعمال الصالحة التى يجزل عليها الثواب (٥) .

وفى المعنى نفسه جاء قوله تعالى آمراً نبيه دواد عليه السلام " أن أعمل سابغات وقدر فى السرد ....(٦) والمعنى أن أعمل دروعا واسعة ضافية ، والسرد نسج الدروع ، أى اقتصد فى نسجها بحيث تتناسب حلقها ، وقيل قدر فى مساميرها فلا تعملها دقاقا فيقلقل فى الحلقة ولا غلاظاً فيكسرها(٧) وذكر أبو السعود وجها آخر ورضيه وهو " أنه لا تصرف جميع أوقاتها فى السردبل بمقدار ما يحصل به القوت ، وأما الباقى فاصرفه إلى

---

(١) النحل ٩٨ .

(٢) تفسير ابن كثير ١/٥٨٥ ، ٥٨٦ .

(٣) مفاتيح الغيب ٢٠/١١٥ .

(٤) فى قوله تعالى :﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ النحل : ٩٧ .

(٥) الكشاف ٢/٤٢٨ .

(٦) سبأ ١١ .

(٧) الكشاف ٣/١٨٢ .

العبادة وهو الأنسب بقوله تعالى وأعملوا صالحاً " (١) وفى هذه الأوامر يقول ابن كثير :

" هذا إرشاد من الله تعالى لنبيه داود عليه السلام فى تعليمه صنعه الدروع ....(٢) وقد ذكر الشيخ الجمل نقلا عن بعضهم أنه ليس أمر إيجاب(٣) .

ومثله قوله تعالى فى مكاتبة العبد ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾...(٤) قال ابن كثير :

" هذا أمر من الله تعالى للسادة إذا طلب عبيدهم منهم الكتابة أن يكاتبوهم بشرط أن يكون للعبد حيلة وكسب يؤدى إلى سيده المال الذى شارطه على أدائه (٥) " ومعنى المكاتبة أن يبتاع العبد نفسه من سيده بما يؤديه من كسبه " (٦) .

وقد تعددت آراء العلماء حول معنى الأمر بالمكاتبة هل هو للإيجاب أو الندب ؟ فمنهم من قال بالوجوب أخذا بظاهر الآية معتمداً على روايات

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبى السعود ٣٤٣/٤ دار الفكر .

(٢) تفسير ابن كثير ٥٢٧/٣ .

(٣) حاشية الجمل ٢١٨/٣ .

(٤) النور ٣٣ .

(٥) تفسير ابن كثير ٢٨٧/٣ .

(٦) المفردات مادة كتب .

وآثار لبعض الصحابة ، وقد ذكر البخارى بعضاً من هذه الآثار التى ظاهرها الوجوب (١) .

وفريق آخر قال بالندب والاستحباب ، وهذا ما عليه جمهرة العلماء ، وقد فصل الإمام العسقلانى هذا الأمر وشرحه شرحاً مستفيضاً لا يدع للشك مجالا فى أن المراد بالأمر هنا الندب وأول الآثار الموهمة للإيجاب تأويلاً يتفق مع مدلول الأمر فى سياقه ومع ما ذهب إليه الجمهور مستأنساً بآراء العلماء القائلين بهذا (٢) . ونقل الحافظ بن كثير طرفا من هذه الآراء وتلك الآثار عزا بعضها إلى البخارى ، مرتضياً فى النهاية القول بالندب فيقول :

" وقد ذهب كثير من العلماء إلى أن هذا الأمر أمر إرشاد واستحباب لا أمر تحتم وإيجاب (٣) " وهذا ما مال إليه / الزمخشرى حين ذكر أن الأمر للندب عند عامة العلماء ، وقد أستأنس بقول الحسن ليس ذلك بعزم إن شاء

---

(١) منها أب ابن جريح قال لعطاء أواجب على إذا علمت له مالا أكاتبه ؟ قال ما أراه إلا واجباً ، ومنها أيضاً أن سيرين سأل أنساً المكاتبة – وكان كثير المال – فأبى فانطلق إلى عمر ﷺ ، فقال كاتبه ، فأبى ، فضربه بالدرة وهو يتلو الآية ... فتح البارى شرح صحيح البخارى ٢٠٤/٥ ، ٢٠٥ باب المكاتب . ت/ عبد العزيز بن باز ، محمد فؤاد عبد الباقى – دار المنار الطبعة الأولى ١٤١٩م ، ١٩٩٩م .

(٢) يذكر أن ضرب عمر أنسا لا يدل على الوجوب ، لاحتمال أنه أدبه على ترك المندوب المؤكد ، ومنها ما ذكره عن ابن القصار إنما علا عمر أنسا بالدرة على وجه النصح لأنس ولو كانت للزمت أنسا ما أبى ، وإنما ندبه عمر إلى الأفضل ، ونقل عن الاصطرخى أن القرينة الصارفة للأمر ففى هذا عن الوجوب الشرط فى قوله " إن علمتم فيهم خيراً فتح البارى ٢٠٧/٥ .

(٣) تفسير ابن كثير ٢٨٧/٣ .

كاتب وإن شاء لم يكاتب ، كما أورد رأيا آخر قال بالوجوب وهو قال عمر ﷺ هى عزمة من عزمات الله (١) لكن الأول أرجح .

ومنه قوله تعالى :﴿ ... فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾(٢) ذكر الحافظ " أن الله تعالى يقول مرشداً للمؤمنين إلى ما يعتمدونه فى حروبهم مع المشركين ﴿ فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ أى إذا واجهتموهم فاحصدوهم بالسيوف " (٣) .

ويلحظ أن الأمر هنا جاء بصيغة المصدر ، وقد فطن ابن كثير لهذا ، وكان للمصدر بلاغة عالية إذا الأصل فاضربوا الرقاب ضرباً فحذف الفعل وقدم المصدر فأنيب منابه مضافاً إلى المفعول ، وفيه اختصار وتأكيد مع ما فيه من تصوير بليغ ، إذ عبر عن القتل بأشنع صورة وهو حز العنق وإطاره العضو الذى هو رأس البدن وعلوه ، وأوجه أعضائه (٤) .

فكل هذه الفنون تضافرت مع أسلوب الأمر فى تأكيد المعنى وترسيخه فى قلوب الفئة المؤمنة " وإرشاد لهم إلى أيسر ما يكون منه القتل "(٥) .

وقد تنبه ابن كثير إلى صيغة ثالثة عليها الأمر وهى المضارع المجزوم بلام الأمر فى قوله تعالى :﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾(٦) يقول :

---

(١) الكشاف ٦٦/٣ .

(٢) محمد ٤ .

(٣) تفسير ابن كثير ١٧٣/٤ .

(٤) الكشاف ٥٣٠/٣ .

(٥) تفسير أبى السعود ٥٨٥/٥ .

(٦) الطارق ٥ .

" تنبيه للإنسان على ضعف أصله الذى خلق منه ، وإرشاد له إلى الاعتراف بالمعاد ، لأن من قدر على البداءة فهو قادر على الإعادة بطريق الأولى (١) .

وقد كان الحافظ ذا تبصر بالأساليب فقد فطن إلى أن معنى الإرشاد قد يأتى مصحوباً بمعنى الامتنان والإباحة ، وذلك فى قوله تعالى لبنى إسرائيل .....﴿ كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ..﴾(٢) فذكر أن " الأمر هنا أمر إباحة وإرشاد وامتنان " (٣) .

* التهديد والوعيد :-

كذلك فطن ابن كثير إلى أن أسلوب الأمر يخرج إلى معنى التهديد والوعيد ، وله فى ذلك وقفات متعددة تنبئ عن ذوق أصيل ، فقد وقف عند قوله تعالى فى شأن آكلى الربا :﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ .....﴾(٤) فقال :

" وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لمن استمر على تعاطى الربا بعد الإنذار " (٥) .

ومعنى " فأذنوا " أى فاعلموا من أذن بالشئ إذا علم به (٦) والتهديد فى الآية بين ، وهناك قراءة " فآذنوا " بالمد (٧) أى فأعلموا بها غيركم ،

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٩٨/٤ .

(٢) البقرة ٥٧ .

(٣) تفسير ابن كثير ٩٧/١ .

(٤) البقرة ٢٧٩ .

(٥) تفسير ابن كثير ٩٧/١ .

(٦) الكشاف ٤٠١/١ .

(٧) نفسه .

وهو من الإذن وهو الاستماع (١) وهذه القراءة تحمل مزيداً من التهديد " حيث أمروا أن يعلموا غيرهم باستحقاقهم المحاربة (٢) .

وللعلماء فى توجيه الخطاب هنا رأيان الأول : أن الخطاب لمن صُدِّرتْ الآيةَ بذكره وهم المؤمنون﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا ... ﴾وقيل الخطاب للكفار الذين يستحلون الربا ، فعلى الرأى الثانى تكون المحاربة ظاهرة ، والحرب من الله النار ، ومن الرسول السيف ، وعلى الأول يكون الإعلام أو العلم بالحرب جاء على سبيل المبالغة فى التهديد دون حقيقة الحرب (٣) .

فلعل ابن كثير سار على هذا الرأى حين ذكر معنى التهديد .

ومنه قوله تعالى :﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾(٤) ومثلها فى الزمر ﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾(٥) يقول الحافظ.

" هذا تهديد شديد ووعيد أكيد أى استمروا على طريقكم وناحيتكم وإن كنتم تظنون أنكم على هذى ، فأنا مستمر على طريقى ومنهجى (٦) ومثلها

---

(١) نفسه .
(٢) حاشية الجمل ٣٧٧/١ .
(٣) حاشية الجمل ٣٧٧/١ .
(٤) البحر المحيط ٣٥٢/٢ .
(٥) الأنعام ١٣٥ .
(٦) الزمر ٣٩ .

فى هود ﴿ يَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَـن يَأْتِيـهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ....﴾(١) .

ومثلها ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَـامِلُونَ﴾(٢) فكل هذه الأوامر تفيد عند ابن كثير معنى التهديد والوعيد(٣) .

ويقول فى قوله تعالى ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّـكَ لاَ يَنفَـعُ نَفْسًـا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُـلِ انتَظِـرُواْ إِنَّـا مُنتَظِرُونَ﴾(٤) تهديد شديد للكافرين ووعيد أكيد لمن سوف بإيمانه وتوبته إلى وقت لا ينفعه ذلك (٥) .

وجاء فى الأعراف على لسان هود عليه السلام ﴿ فَانتَظِرُواْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾(٦) والأمر هنا تهديد ووعيد من الرسول لقومه " (٧) .

كما كان للمنافقين من هذا التهديد والوعيد نصيب " فقال تعالى جلاله متوعدا هؤلاء المنافقين على صنيعهم " ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُـواْ كَثِيـرًا جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾(٨) .

---

(١) تفسير ابن كثير ١٧٨/٢ ، ٤١٤ .

(٢) هود ١٢١ .

(٣) تفسير ابن كثير ٤٥٨/١ ، ٤٦٦ .

(٤) الأنعام ١٥٨ .

(٥) تفسير ابن كثير ١٩٥/٢ .

(٦) الأعراف ٧١ .

(٧) تفسير ابن كثير ٢٢٥/٢ .

(٨) سورة التوبة ٨٢ وراجع تفسير ابن كثير ٣٧٧/٢ .

كذلك كان للمخالفين أوامره من هذا الوعيد حصة فى قوله تعالى ﴿ وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾(١) نقل الحافظ قول مجاهد " هذا وعيد من الله تعالى للمخالفين أوامره بأن أعمالهم ستعرض عليه تبارك وتعالى وعلى الرسول ﷺ وعلى المؤمنين ، وهذا كائن لا محالة يوم القيامة " (٢) .

وهناك أوامر كثيرة أفادت هذا المعنى فطن إليها ابن كثير منها قوله تعالى ﴿ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾(٣) وقوله ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾(٤) وقوله ﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾(٥) وقوله ﴿ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ﴾(٦) وقد ذكر القاضى عبد الجبار فى الآية الأخيرة أن الكلام على التقريع أو التوبيخ للعقاب المنتظر الذى دل عليه بقوله " حتى حين " (٧) وهذه كلها معان متلازمة يفهم منها معنى التهديد الذى أفصح عنه القاضى فى موطن آخر حين قال " فذرهم فى غمرتهم حتى حين " أى فى حيرتهم التى أتوا فيها من

---

(١) التوبة ١٠٥ .

(٢) تفسير ابن كثير ٣٨٦/٢ .

(٣) إبراهيم ٣٠ راجع تفسير ابن كثير ٥٣٩/٢ .

(٤) الحجر ٣ وراجع تفسير ابن كثير ٥٤٧/٢ .

(٥) النحل ٥٥ وتفسير ابن كثير ٥٧٢/٢ .

(٦) المؤمنون ٥٤ .

(٧) بلاغة القرآن فى آثار القاضى عبد الجبار وأثره فى الدراسات البلاغية د/ عبد الفتاح لاشين ١٤٤ دار الكفر العربى .

قبل أنفسهم ، وذلك كالتهديد ، لأن قوله حتى حين تنبيه على عذاب الآخرة.([1])

وقد كشف العلامة أبو السعود عن وجوه أخرى من البلاغة فقال " هو وعيد لهم بعذاب الدنيا والآخرة ، وتسلية للرسول ﷺ ونهى له عن الاستعجال بعذابهم ما لا يخفى من التهويل ([2]) .

ومنه ﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾([3]) " وهو أيضاً تهديد وتبر منهم " ([4]) .

ومنه قوله مهددا الكفرة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾([5]) أى فسترون جزاءه أمامكم ، فهو يتضمن وعيداً مجملاً ، وإنما كان هذا تهديداً للعلم بأنه ليس المراد أمرهم أن يفعلوا ما شاءوا ، وقرائن الأحوال تدل على أن المراد الوعيد لا الإهمال ([6]) .

والأمر هنا مع ما فيه من التهديد فإنه " يحمل معنى عدم الاكتراث بأعمالهم ، لأن وبالها عائدة عليهم لا محالة ([7]) ولأفسح المجال هنا لما دبجه يراع أستاذنا/ الدكتور صباح دراز حول هذه الآية فقد أجاد أيما إجادة حين

([1]) نفسه .

([2]) تفسير أبى السعود ٥٣/٤ .

([3]) الزمر ١٥ .

([4]) تفسير ابن كثير ٤٨/٤ .

([5]) فصلت ٤٠ .

([6]) مواهب الفتاح فى شروح التلخيص ٣١٤/٢ .

([7]) من بلاغة القرآن د/ أحمد أحمد بدوى ١٦٦ دار نهضة مصر .

قال وهذا نمط من الإعجاز فريد أن الأزمنة تتجمع وتتداخل فى لحظة خطاب الإهية ، الحاضر والمستقبل ثم الحاضر ، والمخاطبون هم فى الدنيا والآخرة المؤمنون والكافرون ، والتوتر فى النسق يزداد حتّى يصل قمة التهديد والغضب الماحق ، أن التهديد يبدأ فى قوة بأن من يكفر بالآيات يتحركون تحت الهيمنة والقدرة والرصد الإلهى والمراقبة ، عنفا وتهديداً ثم فى لمحة نجد الآخرة مقامة سوقها والموازنة منعقدة بين لقطتين ، هناك من يؤاخذ فى قهر وامتهان ويلقى إلقاء فى النار كشئ عفن مرذول ، وهناك من يسير الهوينى ممتلئا أمنا ودعة ، إننا نراه باسم الثغر ، منير الوجه ، قرير العين رغيداً ، يالها من موازنة غير متكافئة تعقدها سطوة القدرة يتلاشى أمامها الزمان ... إن الخاطر يجمعهم لينصب عليهم الوعيد فى التفات مبرق الكلمات ملتهب الحروف " اعملوا ما شئتم " فالحياة قصيرة والآخرة مديدة والنار تقول هل من مزيد ... إنه تهديد خالق جبار لمخلوق عمى قلبه فقاده الشيطان([1]) .

وقد فطن الحافظ أيضاً إلى معنى التهديد فى ﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ ....﴾([2]) وقوله ﴿ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ ....﴾([3]) وقوله ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾([4]) وقوله ﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾([5]) وقوله ﴿ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾([6]) .

([1]) فى البلاغة القرآن د/ صباح دراز ١٢٣/١٢٤ .

([2]) القلم ٤٤ وتفسير ابن كثير ٤٠٨/٤ .

([3]) المزمل ١١ وتفسير ابن كثير ٤٣٧/٤ .

([4]) المدثر ١١ وتفسير ابن كثير ٤٤٢/٤ .

([5]) المرسلات ٣٩ وتفسير ابن كثير ٤٦٠/٤ .

([6]) المرسلات ٤٦ وتفسير ابن كثير ٤١٦/٤ .

* التوبيخ والتقريع :-

معانى التوبيخ والتقريع والتهكم قد تلازم معنى التهديد ، فقد تفهم هى منه ويفهم منها إلا أن ابن كثير جعلها مستقلة بنفسها ، قائمة برأسها فى بعض الآيات ؛ وهذا أمر لا غبار عليه ، لأن هذه المعانى المتقاربة المتداخلة التى يثيرها الأسلوب الإنشائى فى النفس هى معان شعورية أو نفسية أو عقلية ، ولهذا فقد نجد اختلافاً فى تسمية هذا المعنى ، أو تعيينه بين العلماء ؛ لأنها أمور ذوقية نفسية متقاربة ، والنص على لون بلاغى واحد لا يعنى أكثر من وضوح هذا المعنى وشهرته (١) .

فمن شواهد التقريع عند ابن كثير ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾(٢) " يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً وتحقيراً وتصغيراً "(٣) .

وقوله تعالى ﴿ ... هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾(٤) " أى يقال لهم هذا الكلام تبكيتا وتقريعاً وتهكما " (٥) وقوله ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾(٦) " أى قولوا ذلك على وجه التهكم والتوبيخ "(٧) أو بتعبير البيضاوى " قولوا له ذلك استهزاء به وتقريعاً على ما كان يزعمه ، لأنه فى وقت القول فى غاية الذلة والحقارة أو هو بإعتبار ما كان إشارة إلى أن عزه

---

(١) الأساليب الإنشائية د/ صبّاح دراز ١٠٥ دار الأمانة .
(٢) آل عمران ١٨١ .
(٣) تفسير ابن كثير ٣٣٤/١ .
(٤) التوبة ٣٥ .
(٥) تفسير ابن كثير .
(٦) الدخان ٤٩ .
(٧) تفسير ابن كثير ١٤٦/٤ .

وكرمه لم يفده شيئاً "(١) وقد ذكر صاحب الإتقان أن الأمر هنا للإهانة (٢) ولا تعارض بين هذه المعانى ، وفى الأمر " ذق " –والذوق لا يكون إلا لمطعوم يساغ ويذاق – إهانة وتحقيراً ، وفى وقوله ﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ تكمن مشاعر السخرية والتحقير وتصل تصدع الحس بما لا يحتمله الخيال (٣) .

ومنه قوله ﴿ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾(٤) قال الحافظ :" يقال لهم ذلك على وجه التقريع والتوبيخ والتحقير والتصغير والتهكم والاستهزاء بهم (٥) .

ومنه قوله ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾(٦) وقوله ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾(٧) وقوله ﴿ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾(٨) .

* التهييج والإغراء :-

كما لمح ابن كثير أن أسلوب الأمر قد يفهم منه معنى التهييج والإغراء والتخضيض وذلك فى قوله تعالى ﴿ وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ﴾(٩) فقال : " إنما هو تهييج وإغراء بالأعداء الذين همتهم

---

(١) حاشية الشهاب على البيضاوى ١٣/٨ مؤسسة التاريخ العربى .

(٢) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ١٤٤ .

(٣) فى البلاغة القرآنية د/ صباح دراز ١٩٩ .

(٤) غافر ٧٦ .

(٥) تفسير ابن كثير ٨٨/٤ .

(٦) الزاريات ١٤ .

(٧) القمر ٤٨ .

(٨) الأنبياء ٣ .

(٩) البقرة ١٩٠ .

قتال الإسلام وأهله ، أى كما يقاتلونكم أنتم "(١) ومثله قوله ﴿ وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾(٢) ومنه قوله ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾(٣) فهذا تهييج للأمة على الاستغفار (٤) .

* الامتنان :-

كما اشتمل الحافظ معنى الامتنان فى كثير من الأوامر القرآنية منها قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً﴾(٥) " فذكر فى مقام الامتنان أنه أباح لهم أن يأكلوا مما فى الأرض فى حال كونه حلالا من الله طيباً ..."(٦) .

فيلحظ أن ابن كثير أشار إلى معنى آخر مع الامتنان وهو الإباحة ، وهو معنى سائغ ينطق به السياق ، قال أبو حيان :

" كلوا أمر إباحة وتسويغ "(٧) لكن الشيخ الجمل ذكر لهذا الأمر ثلاثة معان باعتبار الحالات التى تعترى الناس ، فإما أن يكون مستعملاً فى الوجوب إذا كان الأكل لقيام البنية ، أو الندب إذا كان الأكل مع الضيف ، أو

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٢٢٦ .

(٢) التوبة ٣٦ وراجع تفسير ابن كثير ٢/٣٥٥ ، ٣٥٦ .

(٣) غافر ٥٥ .

(٤) تفسير ابن كثير ٤/٨٤ .

(٥) البقرة ١٦٨ .

(٦) تفسير ابن كثير ١/٢٠٣ .

(٧) البحر المحيط ١/٦٥٢ .

الإباحة إذا كان فى غير ذلك "([1]) لكن هذه تفصيلات بعيدة لا تتعلق بالسياق، ومعنى الامتنان هو الأبرز والأليق .

وقد أشار ابن كثير إلى أنه قد يمتزج معنى الإرشاد مع الامتنان والإباحة وذلك فى قوله تعالى ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ...﴾([2]) قال " أمر إباحة وإرشاد وامتنان "([3]) ومنه قوله ﴿ فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ...﴾([4]) قال " أنكحوا من شئتم من النساء سواهن – أى سوى اليتيمات كثيرات المال المطموع فى مالهن – إن شاء أحدكم اثنتين وإن شاء ثلاثا ، وإن شاء أربعاً ... فالمقام هنا مقام امتنان وإباحة فلو كان يجوز الجمع بين أكثر من أربع لذكره ... "([5]) وهذا فيه رد صريح على بعض طوائف الشيعة الذين جوزوا الزواج بأكثر من أربع .

ومن ذلك قوله ﴿ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾([6]) قال ابن كثير " فيه امتنان "([7]) يضاف إليه ما ذكره الشيخ الجمل نقلا عن الواحدى أن الأمر هنا لإثارة التأمل والاعتبار "([8]) .

([1]) حاشية الجمل ٢١٨/١ .

([2]) البقرة ٥٧ .

([3]) تفسير ابن كثير ٩٧/١ .

([4]) النساء ٣ .

([5]) تفسير ابن كثير ٤٥٠/١ .

([6]) عبس ٢٤ .

([7]) تفسير ابن كثير ٤٧٢/٤ .

([8]) حاشية الجمل ٢٥٥/٤ والأساليب الإنشائية د/ صباح دراز صـ .

* الإباحة :-

كما لم يفت ابن كثير أن ينبه إلى أن الأمر قد يفيد الإباحة فى قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلآئِدَ وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُواْ﴾(١) قال : أى إذا فرغتم من إحرامكم وأحللتم منه فقد أبحنا لكم ما كان محرما عليكم فى حال الإحرام من الصيد (٢) ، وهذا المعنى شائع عن المفسرين (٣) .

ومثله قوله تعالى ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾(٤) قال الحافظ " هذه إباحة من الله لعباده المؤمنين أن يأكلوا من الذبائح ما ذكروا عليها اسمه "(٥) ومنه قوله تعالى :﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾(٦) وقوله ... فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر(٧) فذهب ابن كثير إلى أن الأمر بالأكل فى الآيتين من باب الرخصة والاستحباب والإباحة (٨) واستبعد القول بالوجوب ، وهذا ما قرره الزمخشرى حين ذكر أن الأمر بالأكل منها أمر إباحة ؛ لأن أهل الجاهلية

---

(١) المائدة ٢ .
(٢) تفسير ابن كثير ٥/٢ .
(٣) راجع الكشاف ٩٢/١ ومفاتيح الغيب ١٣١/١١ والبيضاوى وحاشية الشهاب ٢١٤/٣ .
(٤) الأنعام ١١٨ .
(٥) تفسير ابن كثير ١٦٨/٢ .
(٦) الحج ٢٨ .
(٧) الحج ٣٦ .
(٨) تفسير ابن كثير ١١٧/٣ .

كانوا لا يأكلون من نسائكهم ، ويجوز أن يكون ندباً لما فيه من مساواة الفقراء، ومن استعمال التواضع "(١) .

أما الأمر فى " أطعموا فللوجوب (٢) والقول بأن الأمر فيها للندب بعيد ، وقد ذكر القرطبى أن الأكل مستحب والإطعام واجب وهو قول الشافعى (٣) " .

* الثبات والاستمرار :-

كما لمح ابن كثير فى قوله تعالى ﴿ اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ﴾(٤) معنى الثبات والاستمرار والمداومة على الأعمال المعينة على ذلك ، وليس ذلك من باب تحصيل الحاصل (٥) وقد ذهبا بعضهم إلى أن الأمر هنا للدعاء (٦) ، لكن الأوجه والأدق هو القول بالثبات والدوام .

ومثل ذلك قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ﴾(٧) ومثله قوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ﴾(٨) وقال الحافظ " وليس هذا من باب تحصيل الحاصل بل من باب تكميل الكامل وتقريره وتثبيته والاستمرار عليه "(٩) .

---

(١) الكشاف ٣/١١ .

(٢) تفسير ابن كثير ٣/٢١٧ وراجع مفاتيح الغيب ١١/٦٨ ، وتفسير أبى السعود ٤/١٧ .

(٣) تفسير القرطبى الجامع لأحكام القرآن ٦/٤٥٨ .

(٤) الفاتحة ٦ .

(٥) تفسير ابن كثير ١/٢٨ .

(٦) من بلاغة القرآن د/ أحمد بدوى ١٦٦ دار نهضة مصر .

(٧) النساء ١٣٦ .

(٨) الحديد ٢٨ .

(٩) تفسير ابن كثير ١/٥٦٦ .

كما فطن إلى معنى التسخير فى قوله تعالى مخاطباً إبليس ﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا ....﴾(١) ذكر أن هذا الخطاب أمر قدرى كونى (٢) .... كما لمح أيضاً معنى التسلية فى أمر الله رسوله ﷺ " فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ "(٣) قال قال تعالى مسليا لرسوله وواعداً له بالنصر ، ومتوعداً لمن كذبه بالعطب والهلاك فأرتقب إنهم مرتقبون (٤) والمعنى – كما ذكر الزمخشرى – انتظر ما يحل بهم فهم مرتقبون ما يحل بك متربصون بك الدوائر (٥) .

---

(١) الأعراف ١٣ .

(٢) تفسير ابن كثير ٢٠٣/٢ .

(٣) الدخان ٥٩ .

(٤) تفسير ابن كثير ١٤٧/٤ .

(٥) الكشاف ٥٠٨/٣ .

المبحث الثاني

" أسلـوب الأستفهـام "

• الاستفهام :-

الاستفهام أسلوب مثير يهيئ النفس والذهن والعقل لتلقى الأفكار والمعانى ، فيكون الإقناع والإمتاع ، بما يبعثه فى النفس من معان جانبية وإيماءات خفية لها قدرها وأثرها .

وإذا كان هذا البحث يعنى برصد جهود ابن كثير البلاغية فإن الحرى بنا أن نكشف عن وقفاته الذوقية تجاه هذا الأسلوب .

لقد فطن ابن كثير – بحق – إلى كثير من المعانى التى يثيرها الاستفهام فى النفس بعون من السياقات وإيحاء من المقامات ، وكان معنى الإنكار فى تفسيره من أكثر المعانى شيوعاً ، ولا غرو فابن كثير رجل مفسر محدث ذو بصيرة نافذة ، وفطنة بارزة بأغراض القرآن ومقاصده ، فهو يدرك أن القرآن اعتمد أسلوب الإنكار فى كثير من استفهاماته باعتباره انجح الوسائل وأنجح الطرق فى الدعوة إلى الله تحبيباً فى دينه ، وتنفيراً من معتقدات شوهاء انتكست بها الفطر ، فلا نعجب من أنه شغل مساحة عريضة عنده .

الاستفهام بمعنى الإنكار :-

لم يفت ابن كثير أن ينتبه إلى أن هذه الاستفهامات الإنكارية لم تكن لطائفة واحدة من البشر ، وإنما تناولت طوائف شتى ، ولا شك أن طبيعة الإنكار مع هذه الطوائف تتفاوت فيما بينها قلة وكثرة صعوداً وهبوطاً ، قوة وضعفاً ، مخاشنة وملاينة وردعداً وزجراً وحدباً وشفقة تبعاً لاختلاف هذه الطوائف فهما واعتقاداً .

فالاستفهام الإنكارى الموجه إلى الفئة المسلمة لا يكاد يتجاوز الآية أو الآيتين فى تفسيره وهذا أمر طبيعى ؛ لأن النفس المؤمنة المتشبعة بقيم الإيمان ، المتشحة بأخلاق القرآن لا يناسبها الإنكار الرادع والتوبيخ الصاعد، وإنما يناسبها الأمر الحانى والنصح الدافئ الذى يحمل كل معانى الشفقة والإرشاد هدهدة لقلوبهم .

(أ) فمن الاستفهامات المنكرة للفئة المؤمنة حين يعتريها عارض النسيان

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ، كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾([1]) يقول ابن كثير :

" إنكار على من يعد وعداً أو يقول قولا لا يفى به ([2]) ، والآية – عند جمهور المفسيرين نزلت فى المؤمنين الذين نكلوا عن فريضة الجهاد بعد العدة به والانضواء تحت رايته ، فأنكر عليهم ذلك ، وهذا اختيار الطبرى([3]).

وهناك رأى آخر للحسن أن الآية نزلت فى المنافقين ([4]) وعليه يكون " نداؤهم بالإيمان تهكما بهم وبإيمانهم "([5]) وهذا الرأى مضعوف عند ابن كثير ، فقد ذكر روايات متضافرة وأحاديث صحيحة تؤيد الرأى الأول ، كما ذكر العلامة أبو السعود الرأى الثانى بصياغة التوهين فقال وقيل نزلت فى المنافقين ، ونداؤهم بالإيمان تهكم بهم وبإيمانهم وليس بذاك ؛ لأن قوله ﴿ إِنَّ

([1]) الصف ٢ ، ٣ .

([2]) تفسير ابن كثير ٣٥٧/٤ .

([3]) راجع الطبرى ٥٥/٢٨ .

([4]) تفسير ابن كثير ٣٥٨/٤ وراجع الكشاف ٩٧/٤ .

([5]) الكشاف ٩٧/٤ .

اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾ صريح فى أن ما قالوه عبارة عن الوعد بالقتال (١) .

فيلحظ أن أبا السعود قد اعتمد على السياق فى تأييد ما قرره ابن كثير، أما فى وصف المنافقين – على الرأى الثانى – بالإيمان فليس فيه كبير فائدة تعود على المعنى ، وما ذكروه من التهكم فليس بليغاً ، بل الأبلغ منه عدم وصفهم بالإيمان ضنا به عليهم ، وتحاشيا من إسناده إليهم ؛ صونا لقدسيته ، ورفعا لرتبته .

(ب) الإنكار على المشركين :-

أما إنكار القرآن على المشركين فكثرة كاثرة ، وسر هذا أن المشركين شذوا عن سنن الطبيعة ، وندوا عن الانسجام الكونى ، وركبوا متون الشطط ، وتعسفوا فنون اللغط ، وأتوا بما تنفطر لبشاعته السماء ، وتتشق لشناعته الأرض ، وتخر لعظمته الجبال الرواسى ، فناسب أن تأتى الاستفهامات المنكرة تترى ، لتحرك أوتار قلوبهم ، وتهز مجامع عقولهم باللوم والتعنيف تارة ، والتوبيخ والتقريع تارة أخرى .

فمن شواهد هذا الاستفهام قوله تعالى " أم تريدون أن تسئلوا رسولكم كما سئل موسى من قبل (٢) .... قال " أى بل تريدون ، أو هى على بابها فى الاستفهام وهو إنكارى (٣) فيلحظ أن الحافظ أشار إلى أن أم هنا منقطعة مقدرة ببل والهمزة ، وهو ما عليه جمهور المفسرين (٤) فيكون الإضراب

---

(١) تفسير أبى السعود ٧١٧/٥ .

(٢) البقرة ١٠٨ .

(٣) تفسير ابن كثير ١٥٢/١ .

(٤) راجع البحر المحيط ٥١٤/١ .

هنا إضراب انتقال لا إضراب إبطال (١) وأشار أيضاً إلى جواز كونها متصلة ، لكنها ضعيفة كما ذكر أبو حيان والشهاب (٢) .

وعلى كل فإن الاستفهام ينكر عليهم طلبهم الآيات من النبى ﷺ وتوجيه الإنكار إلى الإرادة فى أم تريدون دون متعلقها للمبالغة فى إنكاره واستبعاده ببيان أنه مما لا يصدر عن العاقل إرادته فضلاً عن صدور نفسه(٣) .

ومنه قوله منكراً على من عبد غيره من الأصنام والأنداد ﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا﴾(٤) وقوله ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لاَ يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾(٥) وقوله ﴿ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(٦) وهو استفهام إنكار على المشركين فى عبادتهم مع الله آلهه أخرى (٧) .

ومع هذا يظن القوم لغبائهم المستحكم أن هذه الآلهة المصنوعة ستنفعهم فيأتى الاستفهام القرآنى ﴿ ... قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ منكراً عليهم ذلك(٨) .

---

(١) حاشية الجمل ١/١٥٠ .

(٢) البحر ١/٥٦١ وحاشية الشهاب ١/٢٢١ .

(٣) تفسير أبى السعود ١/١٧٣ وحاشية الشهاب ١/٢٢٢ .

(٤) المائدة ٧٦ وراجع تفسير ابن كثير ٢/٨٢ .

(٥) الأعراف ١٩١ وتفسير ابن كثير ٢/٢٧٦ .

(٦) النمل ٥٩ .

(٧) تفسير ابن كثير ٣/٣٦٩ .

(٨) الآية فى سورة يونس ١٨ وراجع تفسير ابن كثير ٢/٤١١ .

ثم يلتفت ابن كثير إلى أن الاستفهامات الإنكارية سلكت مسالك شتى هادفة هدم اعتقادهم وإبطال معتقدهم لأنهم " اختلقوا ما هم فيه من عبادة غيره بلا دليل ولا حجة ولا برهان فيقول منكراً على المشركين ذلك " أم أنزلنا عليهم سلطنا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون " وهذا استفهام إنكار أى لم يكن لهم شيء من ذلك "(١) .

ويلج الاستفهام الإنكارى مولجاً آخر ؛ لينكر على المشركين " عدم تفهمهم للقرآن العظيم وتدبرهم له وإعراضهم عنه ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾(٢) .

ويعقب هذا الاستفهام استفهام آخر يستحوذ على مناحى تفكيرهم مفحما ومبينا أن دافعهم إلى الشرك هو الصلف الأعمى والتكبر المقيت " أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون "(٣) ذكر ابن كثير أن هذا إنكار على الكافرين من قريش ، أى أفهم لا يعرفون محمداً وصدقه وأمانته ... أفيقدرون على إنكار ذلك والمباهتة فيه "(٤) .

لكن القوم اقتحموا موارد الشطط حين نكبوا عن المألوف لهم والمعروف لديهم من صدق محمد وأمانته ، فاتهموه بما هو منه براء كذباً واختلاقاً " أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون "(٥) والمنون هو الموت، والمراد قوارع الدهر (٦) .

---

(١) تفسير ابن كثير والآية من سورة الروم ٣٥ .

(٢) المؤمنون ٦٨ وتفسير ابن كثير ٢٤٩/٣ .

(٣) المؤمنون ٦٩ .

(٤) تفسير ابن كثير ٢٥٠/٣

(٥) الطور ٣٠ .

(٦) تفسير ابن كثير ٢٤٣/٤ .

ولا غرو فالحقد يعمى ويصم فهم يعجبون كيف يُصطفى محمد دونهم؟ ولم لا يكون المصطفى ملكاً ؟ كل هذه تساؤلات وتعجبات شحنت بها نفوسهم ، وعجَّت بها قلوبهم ، فنضحت على ألسنتهم إنكاراً وتكذيباً ، فنقلها الاستفهام وكشف عنها قال تعالى " أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس (١) .... ذكر ابن كثير أن هذا إنكار على من تعجب من الكفار من إرسال المرسلين من البشر (٢) .

وتتصاعد حدة الإنكار وفق تصاعد افتراءاتهم الموبقة فجعلوا لله ولداً تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً ﴿ قَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾(٣) قال " إنكار ووعيد أكيد وتهديد شديد ، أى ليس عندكم دليل على ما تقولونه من الكذب والبهتان (٤) .

وزادت سفاهتم ورباطيشهم حين جعلوا لله ما يكرهون ، فاختاروا لله الإناث وهم لها كارهون ، ولهم الذكور وهم لهم محبون ، هنا تعلو زفرة الإنكار " أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين (٥) قال : " وهذا إنكار عليهم غاية الإنكار"(٦) .

---

(١) يونس ٢ .
(٢) تفسير ابن كثير ٢/٤٠٥ .
(٣) يونس ٦٨ .
(٤) تفسير ابن كثير ٢/٢٢٤ .
(٥) الزخرف ١٦ .
(٦) تفسير ابن كثير ٤/١٢٥ .

ويتضاعف غلوائهم حين اعتقدوا أنوثة الملائكة ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾ " فيلاحقهم الإنكار المزمجر " أشهدوا خلقهم (١) قال الحافظ فأنكر عليهم تعالى ذلك (٢) .

ثم يتورط هؤلاء فى هوة تشريعهم الكذوب فيحلون ويحرمون حسب أهوائهم المريضة ، فيصفعهم الإنكار صفعة قوية تزلزل أركان تشريعهم ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ، وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ....﴾(٣) يقول ابن كثير :

" نزلت إنكاراً على المشركين فيما كانوا يحلون ويحرمون من البحائر والسوائب والوصايا .... وقد أنكر الله تعالى على من حرم ما أحل الله أو أحل ما حرم بمجرد الآراء والأهواء التى لا مستند لها ولا دليل عليها ثم توعدهم الله على ذلك يوم القيامة فقال " وما ظن الذين يفترون ....(٤) .

وتبلغ سفاهة هؤلاء ذروتها حين استعجلوا بأس الله وحلول غضبه عليهم ، فقالوا مستفهمين استفهاماً تكذيبياً استبعادياً – كما ذكر ابن كثير (٥) ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(٦) لكن القرآن جابههم بهذا

---

(١) الزخرف ١٩ .

(٢) تفسير ابن كثير ١٢٥/٤ .

(٣) يونس ٥٩ ، ٦٠ .

(٤) تفسير ابن كثير ٤٢١/٢ .

(٥) تفسير ابن كثير ٤٦٤/٣ .

(٦) السجدة ٢٨ .

الاستفهام المنكر القارع ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾([1]) قال الحافظ " إنكار عليهم وتهديد ، فإنهم كانوا يقولون للرسول تكذيباً واستبعاداً ائتنا بعذاب الله ...([2]) .

وهناك استفهام إنكار على بعض المشركين الذين اعتقدوا العزة لأنفسهم فى الآخرة فقال كما حكى القرآن ﴿ وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ فيجئ الاستفهام القرآنى منكراً على هذا القائل فى قوله أطلع الغيب أم أتخذ عند الرحمن عهداً "([3]) .

ومع كل هذه السخافات التى يطير لها عقل الحليم شعاعاً ، فإن كلاءة الله لهم قائمة وحراسته لهم دائمة ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾([4]) فيأتى استفهام إنكارى لينفى أن يكون هناك آلهة تحفظهم أو تمنعهم من الله إن أرادهم بسوء ﴿ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴾([5]) ذكر الحافظ أن هذا استفهام إنكار وتقريع وتوبيخ ، أى ألهم آلهة تمنعهم وتكلؤهم غيرنا ، ليس الأمر كما توهموا ولا كما زعموا "([6]) أو ألهم آلهة تمنعهم من العذاب يتجاوز منحنا وحفظنا "([7]) .

([1]) الشعراء ٢٠٤ .

([2]) تفسير ابن كثير ٣٤٨/٣ .

([3]) سورة مريم ٧٨ وتفسير ابن كثير ٦٦/٣ .

([4]) الأنبياء ٤٢ .

([5]) الأنبياء ٤٣ .

([6]) تفسير ابن كثير ١٧٩/٣ .

([7]) الكشاف ٥٧٣/٢ .

وذكر الشهاب أن الاستفهام هنا قد يكون للتقرير بما هو فى زعمهم تهكماً (١) ولعل الذى أوحى إليه بهذا المعنى عبارة البيضاوى " بل ألهم آلهة تمنعهم من العذاب "(٢) فأم منقطعة ، لكن القول بالإنكار هو الأقرب لروح السياق والأليق بالمعنى ، فالإنكار ليس منصباً على منع الآلهة لهم وحفظهم بقدر ما هو منصب على وجودها ، وقد تنبه العلامة أبو السعود إلى هذا من خلال مدخول الاستفهام فقال :" وفى توجيه الإنكار والنفى إلى وجود الآلهة الموصوفة بما ذكر من المنع لا إلى نفس الصفة بأن يقال أم تمنعهم آلهتهم... من الدلالة على سقوطها عن مرتبة الوجود فضلاً عن رتبة المنع ما لا يخفى"(٣) .

ويخبر الله تعالى عن حال الإنسان عند وقوع الزلزلة فيقف مشدوها مستعظماً " إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها وقال الإنسان ما لها (٤) يقول ابن كثير " استنكر أمرها " ولا يفهم منه أن الاستفهام للاستنكار ، بل المراد استعظم أمرها "(٥) لما رآه من الهول الهائل ، يقوى هذا أن ابن كثير فهم من تعريف " الإنسان معناه العام ، وليس يراد به إنسان معين ، أما الجلال فقد رأى أن المراد بالإنسان هنا هو الكافر ، لذا فالاستفهام عنده للإنكار (٦) ، وقد ضعف الشيخ الجمل هذه الوجهة ، لأن

---

(١) حاشية الشهاب ٢٥٦/٦ .

(٢) نفسه .

(٣) تفسير أبى السعود ٥١٩/٣ .

(٤) الزلزلة ١ ، ٢ ، ٣ .

(٥) تفسير ابن كثير ٥٣٩/٤ .

(٦) حاشية الجمل ٤٠٠/٤ .

الكافر عند قيامه من قبره ورؤيتـــه لتلـــك الأهـــوال والأحـــوال لا يســـعه إنكارها"([1]) .

وقد قوّى أبو السعود الفهم الأول القائل بعمومية الإنسان فقال " وهو الأظهر على أن المؤمن بقوله بطريق الاستعظام ، والكافر يقولـــه بطريقـــة التعجب "([2]) .

وذهب صاحب البحر إلى أن الاستفهام للتعجب من شدة الهـــول "([3]) وهذا ما استوجهه الشهاب فى قوله " ولا يلزم من الســـؤال للدهشـــة إنكـــار البعث"([4]) .

(ج) الإنكار على أهل الكتاب :-

ويلتفت ابن كثير إلى أن أهل الكتاب كان لهم من هذا الإنكار نصيب فى قوله تعالى " أم يقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى ﴿ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾([5]) ... فيقول :

" ثم أنكر تعالى عليهم فى دعواهم أن إبراهيم ومن ذكر بعـــده مـــن الأنبياء والأسباط كانوا على ملتهم إما اليهودية وإما النصرانية "([6]) وصحب الإنكار فى الاستفهامين معنى التقريع والتوبيخ كما يقول أبو حيان "([7]) وذكر

([1]) حاشية الجمل ٤/٤٠٠ .

([2]) تفسير أبى السعود ٥/٨٩٥ .

([3]) راجع البحر .

([4]) حاشية الشهاب ٨/٣٨٨ .

([5]) البقرة ١٤٠ .

([6]) تفسير ابن كثير ١/١٨٨ .

([7]) البحر ١/٥٨٦ .

القرطبى أن الاستفهام الأول بمعنى الخبر أى قالوا وذكر قراءة نفر بـــ" يقولون "(١) .

ومنه قوله تعالى ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّورَاةُ وَالإنجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْدِهِ﴾(٢) " وهو إنكار على من يحاج فيما لا علم له به فإن اليهود والنصارى تحاجوا فى إبراهيم بلا علم "(٣) .

ومثله قوله تعالى ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾(٤) والمعنى للإنكار(٥) والمراد أنهم كفروا بآيات التوارة والإنجيل التى نطقت بنبوة محمد ﷺ ، أو كفروا بالقرآن لأنه ذكر دلائل النبوة ، أو كفروا بآيات الله جميعاً مع أنهم يشهدون نعته ﷺ فى الكتابين "(٦) .

ومنه قوله تعالى ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لاَّ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾(٧) يقول الحافظ " وهذا استفهام إنكار ، أى ليس لهم نصيب من الملك، ثم وصفهم بالبخل فقال فإذا لا يؤتون الناس نقيراً ، أى لأنهم لو كان لهم نصيب فى الملك والتصرف لما أعطوا الناس ولا سيما محمد ﷺ شيئاً ولا ما يملأ النقير وهو النقطة التى فى النواة "(٨) والإنكار فى الآية شائع عند المفسرين (٩) .

---

(١) تفسير القرطبى ١٤٣/١ .
(٢) آل عمران ٦٥ .
(٣) تفسير ابن كثير ٣٧٢/١ .
(٤) آل عمران ٧٠ .
(٥) تفسير ابن كثير ٣٧٣/١ .
(٦) الكشاف ٤٣٦/١ .
(٧) النساء ٥٣ .
(٨) تفسير ابن كثير ٥١٣/١ .
(٩) راجع الكشاف ٥٣٤/١ وتفسير القرطبى ٢٤٠/٥ والبيضاوى وحاشية الشهاب ١٤٦/٣ وتفسير أبى السعود ٥٣٦/١ .

وهذا إنكار آخر على أهل الكتاب الذين يريدون التحاكم إلى غير كتاب الله وسنة رسوله قال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا ﴾(١) ذكر ابن كثير أن " هذا إنكار من الله عز وجل على من يدعى الإيمان بما أنزل الله على رسوله وعلى الأنبياء الأقدمين ، وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم فى فصل الخصومات إلى غير كتاب الله وسنة رسوله .... (٢) .

وقد ذهب الشيخ الجمل إلى أن الاستفهام هنا للتعجب (٣) ، ولا تنافى بين الوجهتين ، فقد يحمل الاستفهام معنى الإنكار والتعجيب معاً كقوله تعالى ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ...﴾(٤) .

ثم يوجه إليهم استفهاما آخر ينكر عليهم تلاعبهم بأحكام التوراة ، وأخذهم منها ما يوافق أهواءهم وتركهم ما يكرهون ، وقد فطن ابن كثير لهذا فى قوله ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ...﴾(٥) فيقول : " يقول الله منكراً على اليهود الذين كانوا فى زمان الرسول ﷺ بالمدينة وما كانوا يعانونه من القتال بين الأوس والخزرج ...(٦) وذكر الآية " وذكر أبو السعود أن الهمزة للإنكار التوبيخى "(٧) .

---

(١) النساء ٦٠ .

(٢) تفسير ابن كثير ٥١٩/١ .

(٣) حاشية الجمل ٧٨/١ .

(٤) البقرة ٢٨ .

(٥) البقرة ٨٥ .

(٦) تفسير ابن كثير ١٢٠/١ .

(٧) راجع تفسير أبى السعود ١٥١/١ .

وفى الغرض نفسه " ينكر الله عليهم آراءهم الفاسدة ، ومقاصدهم الزائغة فى تركهم ما يعتقدون صحته من الكتاب الذى بأيديهم الذى يزعمون أنهم مأمورون بالتمسك به أبدا ، ثم خرجوا عن حكمه وعدلوا إلى غيره مما يعتقدون فى نفس الأمر بطلانه وعدم لزومه لهم فقال ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾(١) .

وذهب الرازى وتابعه غيره إلى أن معنى الاستفهام التعجيب ، أى تعجيب الله لنبيه بتحكيم اليهود إياه بعد علمهم بما فى التوراة من حد الزانى ثم تركهم قبول ذلك الحكم "(٢) .

ويأتى استفهامان ينكران عليهم عبادتهم العجل الذى صنعه لهم السامرى وتركهم آله موسى قال تعالى ﴿ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً﴾(٣) فالله ينكر عليهم ضلالهم بالعجل وذهولهم عن خالق السماوات والأرض .... أن عبدوا معه عجلا جسداً له خوار لا يكلمهم ولا يرشدهم إلى خير "(٤) .

وقوله ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لاَّ يِقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ....﴾(٥) وهذا إنكار عليهم فى صنيعهم هذا مع ما أخذ عليهم الميثاق

---

(١) المائدة ٤٣ وتفسير ابن كثير ٢/٦٠ .

(٢) مفاتيح الغيب ١١/٢٣٦ وراجع حاشية الجمل ٢/٤٩٢ .

(٣) الأعراف ١٤٨ .

(٤) تفسير ابن كثير ٢/١٤٧ .

(٥) الأعراف ١٦٩ .

ليبينن الحق للناس ولا يكتمونه ...([1]) وجوز الجلال والجمل أن يكون الاستفهام للتقرير ، أى تقرير ما بعد النفى ، فالمعنى أخذ عليهم الميثاق وهو المناسب لسياق الآية ...([2]) .

(د) الإنكار على الكافرين :-

وتعلو صيحة الإنكار من رجل مؤمن جاء من أقصى المدينة ليعظ قومه المكذبين الرسل ﴿ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾([3]) يقول ابن كثير :

" استفهام إنكار وتقريع وتوبيخ "([4]) ، وذكر أستاذنا صبّاح دراز أن هذا النوع من الإنكار يقتضيه مقام الداعية ، فيه رقة العرض وسياسة النفوس حين ينكر المتكلم على نفسه إيقاع الفعل وهو مستحيل الوقوع منه ليبدأ بنفسه تأليفاً للقلوب وجذباً للإقبال وضماناً للإنصات والتأثير ([5]) .

وجوز الجلال أن يكون الاستفهام للنفى أى لا أتخذ ولا تعارض فالاستفهام قد يكون للنفى ويصحبه الإنكار ....([6]) .

ومنه إنكار المؤمن على صاحب الجنة كفره " أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً ...([7]) يقول الحافظ :" وهذا إنكار وتعظيم

([1]) تفسير ابن كثير ٢/٢٦٠ .

([2]) حاشية الجمل ٢/٢٠٦ .

([3]) يس ٢٣ .

([4]) تفسير ابن كثير ٣/٥٦٨ .

([5]) الأساليب الإنشائية د/ صباح .

([6]) راجع الجلالين بحاشية الجمل ٣/٥٠٨ .

([7]) الكهف ٣٧ .

لما وقع فيه من جحود ربه الذى خلقه وابتدأ خلق الإنسان مـــن طـــين (١) ، وهذا الاستفهام فيه أيضاً معنى التوبيخ والتقريع ، أى لا ينبغى ولا يليق منك الكفر بالذى خلقك "(٢) .

(هـــ) إنكار الأنبياء على أقوامهم :-

لما أنركت الأقوام رسالات السماء ، وصادفت الأنبياء قلوباً عميـــاء انسالت على ألسنتهم أساليب الإنكار لتجابه قساوة قلـــوب أقـــوامهم وعتـــو نفوسهم ، وكان لسيدنا إبراهيم عليه السلام نصيب من هذا ، وقد التفت ابن كثير إلى تلك المواقف حين وقف على قوله تعالى ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾(٣) وقوله ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾(٤) وقوله ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾(٥) فأشار ابن كثير إلى أن الاستفهام فى هذه الآيات خرج لمعنى الإنكار ، وأن إبراهيم أنكر عليهم عبـــادة الأصـــنام والأنداد (٦) .

كذلك أنكر موسى على فرعون وملئه وصفهم الحق الذى جـــاء بـــه بالسحر فى قوله ﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَـــقِّ لَمَّـــا جَـــاءَكُمْ أَسِـــحْرٌ هَـــذَا وَلاَ يُفْلِـــحُ

---

(١) تفسير ابن كثير ٨٣/٣ .

(٢) حاشية الجمل ٢٤١ .

(٣) الأنبياء ٥٢ .

(٤) الشعراء ٧٠ .

(٥) الصافات ٨٥ .

(٦) تفسير ابن كثير ١٨٢/٣ ، ١٨٣ ، ١٢/٤ .

السَّاحِرُونَ﴾(١) قال أبو السعود : " وهو استفهام إنكار مستأنف من جهته عليه السلام تكذيباً لقولهم ، توبيخاً إثر توبيخ وتجهيلاً بعد تجهيل "(٢) .

لكن فرعون امتطى لجة الكبر والعناد ، وتنكب طريق الخضوع والرشاد ، وقابل إنكار موسى بإنكار فقال كما حكى القرآن وأشار ابن كثير " قال فمن ربكما يا موسى "(٣) .

وكذلك أشار الحافظ إلى أن موسى أنكر على الخضر خرقه السفينة وقتله الغلام فقال منكراً ﴿ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾(٤) ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾(٥) ويملح أن الاستفهام أفاد مع الإنكار معنى التعجب (٦) .

كما أنكر سليمان عليه السلام على رسل بلقيس فقال " ... أتمدوننى بمال فما أتانى الله خير مما آتاكم (٧)" قال الجمل " هو استفهام إنكار وتوبيخ ، أى لا ينبغى لكم يا أهل سبأ أن تمدوننى وتعاونونى بالمال "(٨) .

كذلك أنكر قوم هود عليه دعوته إلى الوحدانية فى قوله تعالى ﴿ قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾(٩) قال ابن كثير :

---

(١) يونس ٧٧ وتفسير ابن كثير ٤٢٦/٢ .
(٢) تفسير أبى السعود ٤٢٦/٢ .
(٣) طه ٤٩ وتفسير ابن كثير ١٥٥/٣ .
(٤) الكهف ٧١ وتفسير ابن كثير ٩٧/٣ .
(٥) الكهف ٧٤ وتفسير ابن كثير ٩٧/٣ .
(٦) الكشاف ، الأساليب الإنشائية .
(٧) تفسير ابن كثير ٣/ ...
(٨) حاشية الجمل ٣١٤/٣ .
(٩) الأعراف ٧٠ .

" يخبر تعالى عن تمردهم وعنادهم وإنكارهم على هود عليه السلام ...([1])"
أى أنكروا عليه مجيئه بتخصيص الله بالعبادة .

وذكر الحافظ أن هناك إنكار على من أراد ديناً سوى دين الله الذى أنزل به كتبه وأرسل به رسله ([2]) وذلك فى قوله تعالى ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾([3]) .

* **إفادة الاستفهام التقريع والتوبيخ :-**

معنى التقريع والتوبيخ ليس معنى مستقلاً بنفسه ، قائماً برأسه ، وإنما هو معنى تغمغم به الاستفهامات الإنكارية ، وهذا ما يسميه البلاغيون بالإنكار التوبيخى ، لكن الحافظ كثيراً ما يذكر معنى التوبيخ والتقريع دون أن يشير إلى معنى الإنكار ، وليس هذا دليلا على عدم انتباهه إلى ذلك بل لعله سلك مسلك الإيجاز إيماناً منه بأن التوبيخ من لوازم الإنكار .

يدل على هذا أنه كثيراً ما يدمج بينهما فنراه يقول " استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع ([4]) " أو ربما قصد إلى استقلال هذا النوع بنفسه نظراً لبروزه وظهوره لذا عطفه بالواو ، فمن ثم رأيت أن أفرده وحده تمشيا مع منهجه .

ولقد تنبه إلى أن هذا الأسلوب وجه إلى فئات متعددة من البشر الذين يستحقون أن يصفوا بمثل هذه الاستفهامات .

([1]) تفسير ابن كثير ٢/٢٢٥ .
([2]) تفسير ابن كثير ١/٣٧٨ .
([3]) آل عمران ٨٣ .
([4]) ١-٣ /٥٦٨ .

من هذه الأصناف المشركون الذين انتكسوا عن الفطرة ، فأشركوا مع الله غيره فاستحقوا هذا الاستفهام " قال الله مقرعاً " أفرأيتم اللاتى والعــزى ومناة الثالثة الأخرى .... "(١) .

ثم يجابهون باستفهام آخر يوم الحساب ، ذكر ابن كثير أن الله تعالى يقول مقرعاً لهم وموبخاً ﴿أَيْنَ شُرَكَآئِيَ الَّذِينَ كُنــتُمْ تُشَــاقُّونَ فِــيهِمْ﴾(٢) أى تعادون وتخاصمون المؤمنين فى شأنهم "(٣) كذلك اليهود لم يكونوا بمنجــى من تلك الاستهفامات القارعة ، والتوبيخات الصافعة ، فجــاء قولــه تعــالى ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ.....﴾(٤) قال الحافظ :

" فيه تقريع لهم وتوبيخ على ما سألوا من هذه الأطعمة الدنيئة مع ما هم فيه من العيش الرغيد والطعام الهنيئ الطيب النافع "(٥) .

ولما كان التوبيخ من لوازم الإنكار ذكر الرازى أن الاســتفهام هنــا للإنكار لتفويتهم الأنفع (٦) .

وإذا كان القرآن الكريم قرعهم على تلك الإنتكاســة الذوقيــة حــين استبدلوا الخسيس بالنفيس ، والدنيئ بالهنيئ من الأطعمة ، كذلك قرعهم على انتكاستهم العقلية حين تركوا عبادة الله الواحد وعبدوا هذا العجل المصــنوع الذى صنعه لهم السامرى قال تعالى ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ

---

(١) النجم ١٩ ، ٢٠ وتفسير ابن كثير ٢٥٣/٤ .

(٢) النحل ٢٧ وتفسير ابن كثير ٥٦٧/٢ .

(٣) مفاتيح الغيب ٢١/١٩ .

(٤) البقرة ٦١ .

(٥) تفسير ابن كثير ١٠١/١ .

(٦) مفاتيح الغيب ١١١/٣ .

لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾(١) فكانت هذه ردا عليهم وتقريعاً (٢) قال الجلال هو استفهام توبيخ وتقريع (٣) .

وفى السياق نفسه بعد الآية السابقة جاء لوم موسى وتعنيفه أخاه هارون على ما آل إليه حال اليهود حين أخلفه عليهم قال الحافظ : شرع يلوم أخاه هارون .... فى قوله تعالى ﴿ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾(٤) .

وتعلو صيحة التقريع فى الآخرة حين يجابه أهل الجنة أصحاب النار معنفين وموبخين فى قوله تعالى ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا....﴾(٥) ذكر الحافظ أن بما يخاطب به أهل النار على وجه التقريع والتوبيخ إذا استقروا فى منازلهم أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً "(٦) .

وذهب الجلال وتبعه الجمل إلى أن الاستفهام يحمل معنى التقرير مع التبكيت "(٧) .

كذلك لم ينج أصحاب النار من تقريعات أهل الأعراف حين قالوا لرجال من المشركين كما حكى القرآن ﴿ أَهَؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لاَ يَنَالُهُمُ اللّهُ بِرَحْمَةٍ﴾(٨) قال الحافظ " يقول تعالى إخباراً عن تقريع أهل الأعراف لرجال

---

(١) طه ٨٩ .
(٢) تفسير ابن كثير ١٦٢/٣ .
(٣) الجلالين بحاشية الجمل ١٠٨/٣ .
(٤) طه ٩٣ وتفسير ابن كثير ١٦٣/٣ .
(٥) الأعراف ٤٤ .
(٦) تفسير ابن كثير ٢١٥/٢ .
(٧) الجلالين بحاشية الجمل ١٤٤/٢ .
(٨) الأعراف ٤٩ .

من صناديد المشركين وقادتهم يعرفونهم في النار بسيماهم ما أغنى عنكم كثرتكم ..... "(١) .

ويجوز أن يحمل الاستفهام على معنى التقرير قال الجمل " استفهام تقرير وتوبيخ وشماتة (٢) .

وتتوالى الاستفهامات الرادعة ، والتوبيخات العنيفة لأهل النار يوم القيامة في قوله ﴿ حَتَّى إِذَا جَاؤُوا قَالَ أَكَذَّبْتُم بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٣) " يقول تعالى مخبراً عن يوم القيامة ... ليسألهم عما فعلوه في الدار الدنيا تقريعاً وتوبيخاً ، وتصغيراً وتحقيراً "(٤) .

وهناك آيات أخرى كثيرة أفادت استفهاماتها هذا المعنى وقف عندها ابن كثير منها قوله ﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾(٥) وقوله ﴿ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾(٦) وقوله ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾(٧) وقوله ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا﴾(٨) وقوله ﴿ أَفَسِحْرٌ

---

(١) تفسير ابن كثير ٢١٨/٢ .

(٢) حاشية الجمل ١٤٧/٢ .

(٣) النحل ٨٤ .

(٤) تفسير ابن كثير ٣٧٦/٣ .

(٥) الشعراء ٩٢ وتفسير ابن كثير ٣٣٩/٣ .

(٦) المؤمنون ١٠٥ وتفسير ابن كثير ٢٥٧/٣ .

(٧) الجاثية ٣١ وتفسير ابن كثير ١٥٢/٤ .

(٨) الزمر ٧١ وتفسير ابن كثير ٦٥/٤ .

هَذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾(١) وقوله ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ....﴾(٢) .

* إفادة الاستفهام التهكم :-

لم يغب عن ابن كثير خروج الاستفهام إلى معنى التهكم ، فـذكر أن قوم شعيب قالوا له على سبيل التهكم – قبحهم الله – أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا(٣) فليس المراد به السؤال عن كون الصلاة آمرة بما ذكر ، بل قصدهم الاستخفاف بشأن شعيب فى صلاته ، فكأنهم يقولون : لا قربة لـك توجب اختصاصك بأمرنا ونهينا إلا هذه الصلاة التى تلازمها ، وليست هى ولا أنت بشيء (٤) .

فمن هنا كان تخصيصهم بإسناد الأمر إلى الصلاة من بـين سـائر أحكام النبوة ، لأنه عليه الصلاة والسلام كان كثير الصلاة معروفاً بـذلك ، وكانوا إذا رأوه يصلى يتغامزون ويتضاحكون ، فكانت هى من بين سـائر شعائر الدين ضحكة لهم (٥) .

كذلك تهكم فرعون بموسى حين قال لـه علـى سـبيل الاسـتهزاء والتكذيب " ألا تستمعون "(٦) فى قوله ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ .

---

(١) الطور ١٥ وتفسير ابن كثير ٢٤١/٤ .
(٢) الكهف ٥٠ وتفسير ابن كثير ٨٩/٣ .
(٣) هود ٨٧ وتفسير ابن كثير ٤٥٦/٢ .
(٤) مواهب الفتاح من شروح التلخيص ٣٠٣/٢ .
(٥) راجع تفسير أبى السعود ٥٨/٣ .
(٦) الشعراء ٢٥ وتفسير ابن كثير ٣٣٣/٣ .

ويجوز أن يحمل هذا الاستفهام على معنى التعجب – كما ذكر الرازى فهو يتعجب من جواب موسى بالفاعلية والمؤثرية (١) أو بتغير الجمل إجابة بالصفة التى يسأل عنها بأى (٢) .

كذلك لم تسلم الطاهرة البتول السيدة مريم من تهكم قومها بها حين وضعت عيسى قالوا ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾(٣) فقالوا متهكمين بها ظانين أنها تزدرى بهم وتلعب بهم (٤) ويجوز أن يحمل هذا الاستفهام على معنى التعجب أيضاً ، فهم يتعجبون من تكليمهم طفلاً لم يبرح مهده .

كذلك تهكم القرآن الكريم بالمشركين " فيما ابتدعوه وافتروه على الله من تحريم ما حرموه (٥) فى قوله تعالى ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ وَصَّاكُمُ اللّهُ بِهَذَا﴾(٦) .

* الاستفهام بمعنى النفى :-

إفادة الاستفهام النفى لم يفت ابن كثير أن يشير إليه فى قوله تعالى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾(٧) وقوله ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ

---

(١) مفاتيح الغيب ١٢٩/٢٤ .

(٢) يقصد قوله " رب السموات والأرض وما بينهما – راجع حاشية الجمل ٢٧٥/٣ .

(٣) مريم ٢٩ .

(٤) تفسير ابن كثير ١١٩/٣ .

(٥) تفسير ابن كثير ١٨٣/٢ .

(٦) وحول هذا الاستفهام كلام عالجته فى رسالتى الطير والحيوان فى النظم القرآن دراسة بلاغية ١٨٢ وهى رسالة الدكتوراه مخطوط فى كلية اللغة العربية بإتيـاى البـارود ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م .

(٧) الأنعام ٩٣ .

يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾(١) وقوله ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾(٢) وقوله ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ﴾(٣) وقد كان موقف ابن كثير من هذه الآيات موقفاً متشابهاً فقال ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾(٤) .

ومنه قوله ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾(٥) قال الحافظ " لا أتخذ ولياً إلا الله وحده لا شريك له فإنه فاطر السماوات والأرض"(٦) لكن معنى الإنكار الذى ذهب إليه الرازى وتبعه أبو السعود (٧) هو الأبرز فى الآية ، وقد سلط الاستفهام على المفعول لا على الفعل إيذانا بأن المنكر هو اتخاذ غير الله وليا لا اتخاذ الولى مطلقاً (٨) .

ومنه قوله ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾(٩) قال الحافظ : " وهل أحد غير الله يقدر على رد ذلك إليكم إذا سلبه منكم ، لا يقدر على ذلك أحد سواه ...(١٠) وذكر

---

(١) الأنعام ٢١ .

(٢) يونس ١٧ .

(٣) الصف ٧ .

(٤) تفسير ابن كثير ١٥٧/٢ ، ٢١٢ ، ٤١٠ ، ٣١٦/٤ ، ١٨٣/١ .

(٥) الأنعام ١٤ .

(٦) تفسير ابن كثير ١٢٥/٢ .

(٧) مفاتيح الغيب ١٦٨/١١ وتفسير أبى السعود .

(٨) تفسير أبى السعود .

(٩) الأنعام ٤٦ .

(١٠) تفسير ابن كثير ١٣٣/٢ .

الجمل – نقلا عن بعضهم – أن الاستفهام هنا للإنكار (١) ولا تناقض بينهما لأن مآل الإنكار إلى النفى .

ومثله قوله ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾(٢) أى أنت لا تسألهم أجره ولا جعلا ولا شيئاً على دعوتك إياهم إلى الهدى (٣) ، وذكر أبو السعود أن النفى هذا مفاد من الاستفهام الإنكارى ، وليس الإنكار للرسول ﷺ ولكن لهؤلاء المعرضين عن الذكر الذى جاءهم به (فهم عن ذكرهم معرضون) فينكر عليهم إعراضهم ونفارهم (٤) قال الرازى : يبين سبحانه أنه ﷺ لا يطمع فيهم حتى يكون ذلك سبباً للنفرة "(٥) .

ومنه قوله ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَومِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾(٦) قال الحافظ " لا أضل ممن يدعو...(٧) ومنه قوله ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾(٨) " أى لا يهلك على الله إلا هالك "(٩) كما أنه يشتم من الاستفهام رائحة الإنكار (١٠) والإنكار كما

---

(١) حاشية الجمل ٣١/٢ .

(٢) المؤمنون ٧٢ .

(٣) تفسير ابن كثير ٢٥٠/٣ .

(٤) تفسير أبى السعود ٥٨/٤ ، ٥٩ بتصرف .

(٥) مفاتيح الغيب ١١٢/٢٣ .

(٦) الأحقاف ٥ .

(٧) تفسير ابن كثير ١٥٤/٤ .

(٨) الأحقاف ٣٥ .

(٩) تفسير ابن كثير ١٧٢/٤ .

(١٠) الإتقان ٧٩/١ .

هو معروف عند البلاغين فيه معنى النفى (١) ومنه قوله ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾(٢) قال الحافظ " أى لا يقدر أحد "(٣) .

*** الاستفهام بمعنى الاستبعاد :-**

معنى الاستبعاد من المعانى البلاغية التى يومئ إليها الاستفهام من خلال السياقات ، وقد وقف الحافظ على هذا المعنى عند كثير من الآيات ، من ذلك قوله تعالى عن المشركين المستبعدين وقوع القيامة ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾(٤) قال " نزلت فى نفر من اليهود ، وقيل قريش وكانوا يسألون عن وقت الساعة استبعاداً لوقوعها وتكذيباً بوجودها (٥) ومثله ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴾(٦) قال الحافظ " وإنما يقولون هذا تكذيباً وعناداً وشكاً واستبعاداً "(٧) .

ومثله يسأل أيان يوم القيامة (٨) " وإنما سؤاله استبعاد لوقوعه وتكذيب لوجوده "(٩) .

---

(١) شروح التلخيص ٢٩٦/٢ مطبعة السعادة – الطبعة الثانية ١٣٤٢هـ .
(٢) الفتح ١١ .
(٣) تفسير ابن كثير ١٨٩/٤ .
(٤) الأعراف ١٨٧ .
(٥) تفسير ابن كثير ٢٧١/٢ .
(٦) الزاريات ١٢ .
(٧) تفسير ابن كثير ٢٣٣/٤ .
(٨) القيامة ٦ .
(٩) تفسير ابن كثير ٤٤٨/٤ .

كذلك استعجلوا – قبحهم الله – وقوع العذاب فاستفهموا عنه استفهام استبعاد فى قوله تعالى ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(١) وقوله ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(٢) قال ابن كثير .

" يخبر تعالى عن المشركين أنهم يستعجلون وقع العذاب بهم تكذيباً وجحوداً ، وكفراً وعناد واستبعاداً "(٣) .

كذلك استبعدوا – لعنهم الله – وقوع البعث تعنتا واستكباراً ، وقد أشار الإمام الحافظ إلى هذا عند قوله ﴿قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾(٤) وقوله ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾(٥) وقوله ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لمدينون﴾(٦) وقوله ﴿أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَّخِرَةً﴾(٧) قال الحافظ : " يستبعدون وقوع البعث بعد صيرورتهم إلى البلى (٨) .

وقد أشار الحافظ إلى أن الاستفهام قد يقيد مع الاستبعاد معنى التعجب كما فى قوله ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾(٩) يقول " قال عز وجل

---

(١) السجدة ٢٨ .

(٢) الأنبياء ٣٨ .

(٣) تفسير ابن كثير ١٧٩/٣ ، ٤٦٤ .

(٤) المؤمنون ٨٢ .

(٥) النمل ٦٧ .

(٦) الواقعة ٤٧ .

(٧) النازعات ١١ .

(٨) تفسير ابن كثير ٢٥٢/٣ ، ٣٧٣ ، ٢٩٥/٤ ، ٤٦٧ .

(٩) ق٣ .

مخبراً عنهم فى تعجبهم من المعادَ واستبعاد لوقوعه "(١) وقد أفاد المعنيين أيضاً فى قوله ﴿ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنْ الْمُصَدِّقِينَ﴾(٢) ويقول ذلك على وجه التعجب والتكذيب والاستبعاد والكفر والعناد (٣) وزاد الرازى معنى الإنكار والتوبيخ(٤) " أى يقول لى تبكيتا وتوبيخا على عدم إنكار البعث أئنك لمن المصدقين "(٥) .

ومثله ﴿ وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾(٦) " فالله يخبر عن الإنسان أنه يتعجب ويستبعد إعادته بعد موته "(٧) .

ومنه قوله ﴿ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾(٨) استبعدوا أن تكون الرسالة فى البشر(٩) .

*** الاستفهام بمعنى التهديد :-**

كذلك من معانى الاستفهام الشائعة عند ابن كثير معنى التهديد وقد تنوعت صور التهديد تبعا للفئة الموجه إليها هذا الاستفهام ، فجاءت تهديدات للكافرين على النحو التالى فى قوله تعالى ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ

---

(١) تفسير ابن كثير ٢٢٢/٤ .
(٢) الصافات ٥٢ .
(٣) تفسير ابن كثير ٨/٤ .
(٤) مفاتيح الغيب ١٣٩/٢٦ .
(٥) حاشية الجمل ٥٣٧/٣ .
(٦) مريم ٦٦ .
(٧) تفسير ابن كثير ١٣١/٣ .
(٨) التغابن ٦ .
(٩) تفسير ابن كثير ٣٧٤/٤ .

فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلآئِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ....﴾(١) وقوله ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ﴾(٢) وقوله ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ...﴾(٣) ذكر الحافظ " أن هذا تهديد للكافرين بمحمد ﷺ المخالفين لرسله والمكذبين بآياته المتمادين فى الباطل المغترتين بالدنيا "(٤) .

وقد نقل الشيخ الجمل عن بعضهم وارتضاه أن الاستفهام فى هذه الآيات فيه معنى الإنكار والتوبيخ ، أى ما ينبغى لكم أو يليق بكم أن تنتظروا العذاب ، أى أن تقيموا على ارتكاب أسبابه (٥) ، وعند الرازى أن الاستفهام للتهديد (٦) وعلى كل فإنه لا تدافع بين القول بالتهديد والقول بالإنكار والسياق يحتملهما .

كذلك هدد الله سبحانه وتوعد من أشرك به غيره فى قوله تعالى ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ﴾(٧) وقوله ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾(٨) وقوله ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ..﴾(٩) .

---

(١) البقرة ٢١٠ .
(٢) الأنعام ١٥٨ .
(٣) النحل ٣٣ .
(٤) تفسير ابن كثير ٢٤٨/١ ، ١٩٣/٢ ، ٥٦٨ .
(٥) خاشية الجمل ١٦٦/١ .
(٦) مفاتيح الغيب ٢٦/٢٠ .
(٧) المؤمنون ١١٧ .
(٨) الملك ١٧ وتفسير ابن كثير ٣٩٨/٤ .
(٩) الأحقاف ٣٤ .

ومنه قوله ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾(١) يقول الحافظ : " هذا تهديد لا كما يتوهمه بعض الناس من أنه إرشاد إلى الجواب ، حيث قال الكريم حتى يقول قائلهم غره كرمه (٢) .

وقد حمل السيوطى هذا الاستفهام على النهى (٣) .

ومنه تهديد الله الوائدين بناتهم ﴿وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ ، بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾(٤) قال " تسأل الموءودة على أى ذنب قتلت ، ليكون ذلك تهديداً لقاتلها، فإنه إذا سئل المظلوم فما ظن الظالم "(٥) .

كما كان لليهود – عليهم لعائن الله المتوالية – نصيب من هذا التهديد، فقد ذكر الحافظ أن الله قال مهدداً لهم ومتوعداً فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه أى كيف يكون حالهم وقد افتروا على الله وكذبوا رسله وقتلوا أنبياءه والعلماء (٦) .

كما لمح الحافظ أن فى قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ تهديد للنصارى وتوبيخاً وتقريعاً على رؤوس الأشهاد (٧) .

---

(١) الانفطار ٦ .

(٢) تفسير ابن كثير ٤/٤٨١ .

(٣) الإتقان للسيوطى ٢/٨٠ .

(٤) التكوير ٨ ، ٩.

(٥) تفسير ابن كثير ٤/٤٧٧ .

(٦) تفسير ابن كثير ١/٣٥٦ والآية فى سورة المائدة ١١٦ .

(٧) تفسير ابن كثير ٢/١٢٠ والآية فى سورة المائدة ١١٦ .

وقد ذكر الدكتور أبو موسى إلى أن فى الآية تقريراً بما يعرفه المخاطب من مضمون الكلام ، فالمراد التقرير بما يعرفه من أنه لم يقل لهم هذا ، وليس المراد التقرير بما دخلت عليه الهمزة ، لأنه صلوات الله عليه لم يقل ذلك (١) .

لكن معنى التوبيخ والتهديد للنصارى أظهر فى السياق وألصق به من معنى التقرير ، وقد ذكر المبرد أن هذا توبيخ (٢) لكن لم يبين جهة التوبيخ إلا فى آية أخرى ساقها تنظيراً لهذه الآية وهى قوله ﴿وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ﴾ وإنما تسأل تبكيتا لمن يفعل ذلك بها (٣) ، والاستفهام عند الرازى والجمل للإنكار والتوبيخ (٤) .

• الاستفهام بمعنى التعجب :-

لم يفت الحافظ أن ينتبه إلى أن الاستفهام قد يخرج إلى معنى التعجب، وذلك فى قوله تعالى ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُواْ أَهَؤُلاء الَّذِينَ أَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُواْ خَاسِرِينَ﴾(٥) يقول : " فلما انعقدت الأسباب الفاضحة لهم ، تبين أمرهم لعباد الله المؤمنين ، فتعجبوا منهم كيف كانوا يظهرون أنهم من المؤمنين ، ويحلفون على ذلك ويتأولون ، فبان كذبهم وافتراؤهم "(٦) .

---

(١) دلالات التراكيب د/ محمد أبو موسى ٢٢٥ مكتبة وهبة – الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ – ١٩٨٧م .

(٢) الكامل للمبرد ٢٧٩/١.

(٣) الكامل للمبرد ١١٦/٢ .

(٤) مفاتيح الغيب ١٣٤/١٢ ، وحاشية الجمل ٥٤٤/١ .

(٥) المائدة ٥٣ .

(٦) تفسير ابن كثير ٦٨٢/٢ .

وقد أشار الزمخشرى إلى هذا المعنى فقال " إما أن يقولـــه بعضـــهم لبعض (يقصد المؤمنين) تعجباً من حالهم ، واغتباطا بما منَّ الله عليهم مـــن التوفيق فى الإخلاص .... وإما أن يقولـــوه لليهـــود ، لأنهـــم حلفـــوا لهـــم بالمعاضدة والنصرة (١) .

وكذلك تعجب إخوة يوسف من أمره فقالوا – كما حكـــى القـــرآن – ﴿أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ...﴾(٢) ذكر الحافظ أنهم تعجبوا من ذلك أنهم يتـــرددون إليه من سنتين وأكثر وهم لا يعرفونه ، وهو مع هذا يعرفهم ويكتم نفسه (٣) وقد أشار الزمخشرى إلى هذا المعنى (٤) ، وجوز الشيخ الجمـــل أن يكـــون الاستفهام للتقرير أى قالوا ذلك طالبين التثبت والتحقق (٥) .

ومثله تعجب إبراهيم عليه السلام حين بشر على كبر بمولـــود فـــى قولـــه ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾(٦) ذكر الحافظ أنه قال ذلك متعجباً من كبره ، وكبر زوجته ومتحققاً للوعد (٧) .

كما تعجب زكريا عليه السلام فقال – كما حكى القرآن –﴿قَـــالَ رَبِّ أَنَّـــى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَـــرِ عِتِيًّـــا﴾(٨) وقـــال

---

(١) الكشاف ٦٤٣/١ وراجع الرازى فى مفاتيح الغيب ١٨/١١ .

(٢) سورة يوسف ٩٠ وهذا على قراءة الاستفهام وهى المشهور ، وهناك قراءة لأبى بن كعـــب " إنك لأنت يوسف " وقرأ ابن محيض " أنت يوسف " تفسير ابن كثير ٤٨٩/٢ لكـــن القـــراءة المشهورة هى الأثرى لدلالتها على التعجب اللائق بحال إخوة يوسف فى هذا المقام .

(٣) تفسير ابن كثير ٤٨٩/٢ .

(٤) الكشاف ٥٠٢/٢ .

(٥) حاشية الجمل ٤٧٩/٢ .

(٦) الحجر ٥٤ .

(٧) تفسير ابن كثير ٥٥٤/٢ .

(٨) مريم ٨ وراجع تفسير ابن كثير ١١٢/٣ .

بعضهم لا مانع من أن يكون الاستفهام على ظاهره ، وأن يكون قد قاله تشوفا إلى معرفة الكيفية التى يكون بها الإنتاج مع عدم توفر الأسباب العادية بكبر سنة وعقر زوجه (١) .

ومثله قول السيدة مريم كما ذكر القرآن ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾(٢) فتعجبت مريم من هذا (٣) ومنهم من جوز حمل الاستفهام على حقيقته (٤) .

كذلك انسالت بعض الاستفهامات على ألسنة المكذبين لأنبيائهم اشتم منها ابن كثير رائحة التعجب من ذلك قوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولواْ أَهَؤُلاء مَنَّ اللّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا﴾(٥) .(أى يتعجبون كيف اهتدى هؤلاء دوننا..(٦) وعلى هذا يكونون قد قالوه فيما بينهم ، وجوز الزمخشرى أن يكونوا قد قالوه للمؤمنين إنكاراً (٧)) وذكر الرازى نقلا عن بعضهم أن الاستفهام هنا ليس معناه الإنكار (٨) . ولم يعلق عليه ، لكن يبدو – والله أعلم – أن الاستفهام هنا قد يحتمل المعنيين التعجب الذى أشار إليه ابن كثير والإنكار الذى أشار إليه الزمخشرى وتبعه فيه النسفى (٩) ، وذلك على

---

(١) راجع تفسير المنار محمد رشيد رضا ٢٩٨/٣ دار المعرفة .
(٢) مريم ٢٠ .
(٣) تفسير ابن كثير ١١٥/٣ .
(٤) راجع تفسير المنار ٣٠٧/٣ .
(٥) الأنعام ٥٣ .
(٦) تفسير ابن كثير ١٥٦/٤ .
(٧) الكشاف ٢٨/٢ .
(٨) مفاتيح الغيب ٢٣٨/١٢ .
(٩) تفسير النسفى ٢٢/٢ .

اعتبار أن هذا القول صادر من المؤمنين فيكون الاستفهام تعجبياً لأنه لا يليق الإنكار بالمؤمنين فهم الراضون بقضائه سبحانه ، ويكون المعنى – كما ذكر الرازى – أهؤلاء الكفار من الله عليهم من بيننا بالغنى والجاه من المناصب الدنيوية (١) .

وأما إذا كان القول صادراً من الكافرين ويكون المعنى – كما ذكر ابن كثير – كيف اهتدى هؤلاء دوننا فيكون هذا المعنى أقرب إلى الإنكار الذى ذهب إليه الزمخشرى ولا يمنع أن يكون هذا الإنكار ممزوجاً بالتعجب الذى قال به الحافظ .

ومنه قول قوم صالح لنبيهم فيما حكى القرآن ﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾(٢) قال الحافظ (تعجبوا من إلقاء الوحى عليه خاصة من دونهم)(٣) وجوز الإمام النسفى أن يكون الاستفهام للإنكار (أى إنكار لأن يتبعوا مثلهم فى الجنسية ولا تعارض لما يحمله الإنكار من معنى التعجب)(٤) .

* **الاستفهام بمعنى التقرير :-**

معنى التقرير من المعانى الشائعة للاستفهام ، وقد ألتفت إليها ابن كثير فى قوله تعالى ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ

---

(١) مفاتيح الغيب ٢/٢٣٨ .

(٢) القمر ٢٤ .

(٣) تفسير ابن كثير ٤/٢٦٥ .

(٤) تفسير النسفى ٤/٣٠٠ .

الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ﴾(١) . وقوله ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾(٢) . وذهب النسفى إلى أن الاستفهام هنا للتنبيه ليقع المعجز بها بعد التثبت ، أو للتوطين لئلا يهوله انقلا بها حية ، أو للإيناس ورفع الهيبة فى المكالمة (٣) .

ومنه قوله ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ﴾(٤) .

فكل هذه الاستفهامات خرجت إلى معنى التقرير عند ابن كثير (٥) .

*** الاستفهام بمعنى النهى :-**

كما تنبه الحافظ أيضاً إلى أن الاستفهام قد يفيد معنى النهى ، وذلك فى قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام لقومه ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾(٦) . قال (أى لا تعجبوا من هذا فإنه ليس بعجب أن يوحى الله إلى رجل منكم رحمة بكم ولطفاً وإحساناً ، لينذركم ولتتقوا لقمة الله ولا تشركوا به لعلكم ترحمون (٧) . وقد اشتمل الإمام النسفى منها معنى الإنكار (٨) وهو معنى وجيه .

---

(١) الأنعام ١٣٠ .
(٢) طه ١٧ .
(٣) تفسير النسفى ٣/٨٠ .
(٤) البروج ١٧ .
(٥) تفسير ابن كثير ٢/١٧٧ ، ٣/١٤٤ ، ٤/٤٩٦ .
(٦) الأعراف ٦٣ .
(٧) تفسير ابن كثير ٢/٢٢٣ .
(٨) تفسير النسفى ١/٨٦ .

ومن قوله على لسان هود عليه السلام لقومه ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(١) (أى لا تعجبوا أن بعث الله إليكم رسولا لينذركم أيام الله ولقاءه (٢) .

ومثله ﴿ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(٣) (أى لا تخشوهم وأخشون فأنا أهل أن يخشى العباد من سطوتى وعقوبتى (٤)) ، وأوثر هنا أسلوب الاستفهام عن النهى لأن الاستفهام أقدر على لمس قلوبهم ، وإثارة اعتزازهم ، حثا لهم عل الإستجابة للنهى (٥) . وقد يحمل الاستفهام هنا معنى التوبيخ (٦) .

*** الاستفهام بمعنى الأمر :-**

وقد أفاد الاستفهام هذا المعنى فى قوله تعالى ﴿ أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٧) قال الحافظ (وهذا من كرمه تعالى وجوده ولطفه ورحمته بخلقه مع هذا الذنب العظيم – يقصد القائلين بالتثليث – وهذا الافتراء والكذب والإفك يدعوهم إلى التوبة والمغفرة (٨) . وذهب

---

(١) الأعراف ٦٩ .
(٢) تفسير ابن كثير ٢/٢٢٤ .
(٣) التوبة ١٣ .
(٤) تفسير ابن كثير ٢/٣٣٩ .
(٥) أبواب من علم المعانى د/ شاكر الصباغ ١٢٩ – ١٤١٠هـ – ١٩٨٩م .
(٦) راجع تفسير النسفى ١/١٧١ .
(٧) المائدة ٧٤ .
(٨) تفسير ابن كثير ٢/٨١ .

الزمخشرى إلى أن فيه تعجيباً من إصرارهم على الكفر (١) . لكن القول بإفادته معنى الأمر ألمس للسياق وفى تذييل الآية دلالة عليه ، وقد نقل الإمام الفخر عن الفراء (أن هذا الأمر فى صورة الاستفهام)(٢) .

وقد يكون الاستفهام استعلاماً واستكشافاً كما فى وقوله تعالى ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾(٣) . قال ابن كثير (وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة فى ذلك يقولون يا ربنا ما الحكمة فى خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد فى الأرض ويسفك الدماء (٤) .

وقد ذهب الزمخشرى وتبعه الرازى والنسفى إلى أن معنى الاستفهام هنا التعجب من أن يستخلف مكان أهل الطاعة أهل المعصية (٥) .

وقد يخرج الاستفهام إلى معنى التفخيم والتهويل والتعظيم ، وقد وقف الحافظ عند شواهد كثيرة أفادت هذا المعنى منها قوله تعالى ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ﴾(٦) . وقال (وهذا تهويل لأمرها وتفخيم)(٧) . ومثله ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾(٨) .

---

(١) الكشاف ٩٩٤/١ وراجع النفى ١٢٦/١ .

(٢) مفاتيح الغيب ٦٠/١٢ .

(٣) البقرة ٣٠ .

(٤) تفسير ابن كثير ٦٩/١ .

(٥) الكشاف ١٢٤/١ .

(٦) المدثر ٢٧ .

(٧) تفسير ابن كثير ٤٤٣/٣ .

(٨) المطففين ٨ وتفسير ابن كثير ٤٨٣/٤ .

(وما أدراك ما يوم الدين ثم ما أدراك ما يوم الدين)(١).﴿ الْحَاقَّةُ* مَا الْحَاقَّةُ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾(٢) .﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ﴾(٣) .﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾(٤) . فكل هذه شواهد قرآنية لمح فيها ابن كثير معنى التفخيم والتهويل .

النهى :

لم ينل أسلوب النهى عند الحافظ مثل ما نال أسلوب الأمر ، فقد كانت وقفاته عنده بمثابة الومضات السريعة واللمحات الخاطفة .

ومن الإجحاف القول بخفاء دلالات هذا الأسلوب عليه ، كيف وأن النهى قرين الأمر ؟ وهما دعامتان من دعامات أصول الفقه يرتكز عليها فى بيان الأحكام التشريعية وما ذلك بناءٍ ولا خاف على ابن كثير الذى يحتوى تفسيره على كثير من الإرشادات الأصولية التى تحتاج إلى جهود الباحثين المتخصصين فى هذا الميدان .

ومع ذلك فقد ذكر ابن كثير ثلاثة معان من معانى النهى وهذا يدل على علمه دلالاته وتنبهه لإيماءاته ، لكنه ربما سلك طريق الإيجاز ، اعتماداً على وضوح معانيه ، أو أن التأكيد على المنهج البلاغى والتوسع فيه ليس من وكده ، ولكنها إشارات تظهر بين الحين والآخر ينضح به ذوقه ، وتجود بها قريحته ، فمن هذه المعانى :

---

(١) الانفطار ١٧ ، ١٨ وتفسير ابن كثير ٤٤٣/٤ .
(٢) الحاقة ١ ، ٢ وتفسير ابن كثير ٤١٢/٤ .
(٣) القارعة ١٠ .
(٤) المرسلات ١٤ وتفسير ابن كثير .

الإرشاد : –

وذلك فى قوله تعالى ﴿وَلاَ تَسْأَمُوْاْ أَن تَكْتُبُوْهُ صَغِيرًا أَو كَبِيرًا إِلَـى أَجَلِهِ﴾(١) يقول " وهذا من تمام الإرشاد وهو الأمر بكتابة الحق صغيراً كان أو كبيراً ، فقال ولا تسأموا أى لا تملوا أن تكتبوا الحق على أىحال كان من القلة أو الكثرة إلى أجله (٢) .

الدعاء :–

وذلك فى قوله تعالى حكاية عن زكريا ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَـرْدًا وَأَنـتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾(٣) قال الحافظ : " دعاء وثناء مناسب للمسئله (٤) " .

التسلية والتسرى :–

كما أفاد النهى معنى التسلية فى قوله تعالى مخاطبـاً نبيـه ﷺ ﴿وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾(٥) .

تلك هى الوقفات التى استطعت أن أقف عليها فى تفسير الحافظ وهى تدل – وإن قلت – على تذوق للأساليب وتفطن للتراكيب .

---

(١) البقرة ٢٨٢ .

(٢) تفسير ابن كثير ٣٣٦/١ .

(٣) الأنبياء ٨٩ .

(٤) تفسير ابن كثير ١٩٣/٣ .

(٥) النحل ١٢٧ .

الخاتمة

بعد هذه التطوافة المباركة فى رياض القرآن الكريم من خلال تفسير القرآن العظيم للحافظ بن كثير استطاع هذا البحث أن يقف على نتائج متعددة منها :

تفسير الحافظ بن كثير من التفاسير التى غلبت عليها نزعة التفسير بالمأثور ، وقد اقتفى فى هذه طريقة شيخه ابن جرير الطبرى الذى كان يحيل إليه فى كثير من المواقف .

والتفسير بالمأثور منهج سديد حمده العلماء وأثنى عليه المحققون :

- ابن كثير واحد من هؤلاء الأعلام الرواد الذين يرون أن الأبرز فى مظاهر الإعجاز القرآنى هو الإعجاز البلاغى ، أما القول بالصرفة فهو قول مرجوح .
- ابن كثير فى إشاراته التفسيرية والبلاغية كان مستقل الشخصية مبتعداً عن طريق التبعية ، فهو وإن كان فى الغالب متأثراً بالسابقين إلا أنه كانت له آراء موفقة وتوجيهات سديدة .
- اللمحات البلاغية فى تفسير الحافظ بن كثير لم تقصد قصداً ، ولم تكن غرضاً أساسياً انبنى عليها تفسيره ، وإنما هى لمحات ذوقية سمح بها طبعه ، وجادت بها قريحته .
- كان ابن كثير مثالاً للأمانة العلمية التى هى أبرز صفات العلماء ، فكان ينسب الرأى لقائله ، فيقول : قال الزمخشرى ... ، اختاره الطبرى ... ، ذكره القرطبى ... ، وإن كانت الفكرة عامة قال : ذكر علماء البيان ... ، قال علماء اللغة ... ، نقل عن بعضهم .

- تمتع الحافظ بن كثير بثراء لغوى أعانه – فى كثير من المواقف – على استحضار الشواهد الشعرية التى تؤكد فكرته وتوضح وجهته .
- هناك أمر هام ينبغى الإشارة إليه ، وهو أن تفسير الحافظ بن كثير ملئ بالغرر اللغوية ، والإرشادات النحوية ، القواعد الأصولية ، والأحكام الفقهية التى تحتاج إلى باحثين ، مهرة متخصصين فى هذه الميادين يكشفون عنها ويدرسونها .

كما أن له كثيرا من الاعتراضات التفسيرية على أستاذه الطبرى وهى الأخرى حرية بالبحث والدرس للوصول إلى مواطن السداد .

فأسأل الله سبحانه أن يبصرنا بمواطن الصواب ، ويجزل لنا عظيم الثواب ، والحمد لله فى الأولى والآخرة .

ثبت المصادر والمراجع

- الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى – دار مصر للطباعة .
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبى السعود دار الفكر .
- أساس البلاغة للزمخشرى الهيئة العامة لقصور الثقافة .
- الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية فى القرآن الكـــريم د/صـَّـباح دراز مطبعة الأمانة – الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م .
- تفسير البيضاوى – المكتبة الإسلامية .
- إعجاز القرآن عبد الكريم الخطيب – دار الفكر العربى – الطبعة الأولـــى ١٣٨٣هـ – ١٩٦٤م .
- الإيضاح فى علوم البلاغة للخطيب القزراينى دار الجيل .
- البحر المحيط لأبى حبان دار الفكـــر – الطبعـــة الثانيـــة ١٤٠٣هـــ – ١٩٨٣م.
- البدر الطالع من بعد القرن السابع لمحمد بن على الشـــوكانى – مطبعـــة السعادة – الطبعة الأولى ١٣٤٨هـ.
- بلاغة القرآن فى آثار القاضى عبد الجبار وأثره فى الدراسات البلاغيـــة د/عبد الفتاح لاشين – دار الفكر العربى .
- بيان إعجاز القرآن للخطابى فى ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن ت/ محمد خلف الله ، محمد زغلول سلام – دار المعارف .
- تفسير القرآن العظيم للحافظ بن كثير المكتبة التوفيقية .
- تفسير القرآن العظيم للحافظ بن كثير دار الإرشاد .

- تفسير المنار محمد رشيد رضا – دار المعرفة – بيروت – لبنان .
- الجامع لأحكام القرآن للقرطبى .
- حاشية الجمل على تفسير الجلالين – مطبعة عيسى الحلبى ومطبعـــة دار الفكر .
- حاشية الشهاب الخفاجى على تفسير البيضاوى – موسسة التاريخ العربى .
- دلالات التراكيب د/ محمد أبو موسى – مكتبة وهبـــة – الطبعـــة الثانيـــة ١٤٠٨هـــ - ١٩٨٧م .
- الرسالة الشافية فى الإعجاز من كتاب دلائل الإعجاز ت/ محمد شـــاكر – الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لأبى الفلاح الحنبلى – مكتبة القدس .
- شروح التلخيص .
- علوم البلاغة للمراغى دار القلم – بيروت – لبنـــان – الطبعـــة الأولـــى ١٩٨٠م .
- فى البلاغة القرآنية د/صبَّاح دراز .
- الكامل فى اللغة والأدب للمبرد ت د/ عبد الحميد هنـــداوى – دار الكتـــب العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى ١٤١٩هـــ - ١٩٩٩م .
- الكشاف – دار الكتاب العربى .
- الكشاف – دار الفكر .
- مباحث فى علوم القرآن منيع القطان – مؤسسة الرسالة الطبعة الســـابعة والعشرون ١٤١٦هـــ - ١٩٩٥م .

- محاضرات فى أصول الفقه د/ عبد المجيد مطلوب .
- المطول على التلخيص لسعد الدين التفتـــازانى – مطبعـــة أحمـــد كامـــل ١٣٣٠هـــ .
- المعانى الثانية فى الأسلوب القرآنى د/ فتحى عامر – منشأة دار المعارف.
- معانى القرآن للقراءات ت/ أحمد يوسف نجاتى – محمد على النجـــار – مطبعة دار الكتب العربية – الطبعة الثالثة .
- المغنى لابن قدامة ت/ جماعة من العلماء – دار الحديث – الطبعة الأولى ١٤١٦هـــ – ١٩٩٦م .
- مفاتيح الغيب للرازى – الطبعة البهيـــة المصـــرية – الطبعـــة الأولـــى ١٣٥٧هـــ – ١٩٣٨م .
- المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى دار الخلو للتراث .
- من بلاغة القرآن د/ أحمد أحمد بدوى – دار نهضة مصر .
- المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى لابـــن تغـــرى ت/ محمـــد أيـــن ، د/سعيد عاشور .
- الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤م .